الهندي الأحمر الأخير

ماتاواشيش وقصص مهاجرة

طارق الجارد

Mkalemat

الهندي الأحمر الأخير

«ماتاواشيش وقصص مهاجرة»

الهندي الأحمر الأخير
«ماتاواشيش وقصص مهاجرة»
طارق الجارد
دار كلمات للنشر والتوزيع
بريد إلكتروني:
Dar_Kalemat@hotmail.com
الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

* All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

ردمك: 978-9921-768-05-3

الهندي الأحمر الأخير

«ماتاواشيش وقصص مهاجرة»

طارق الجارد

2021

Mkalemat

ماتاواشيش أو الهندي الأحمر ما قبل الأخير في كندا

ولأنه ليس الهندي الأحمر الأخير، كان عليه أن يمارس كل الأدوار التي تليق بهندي أحمر ما قبل الأخير، يوشك على الانقراض ولا ينقرض.

رأيت ماتاواشيش ثماني مرات، أول مرة كان يعرج على قدمين، إحداهما مهترئة متورمة مهملة باتجاه المستشفى، لم تبدُ على وجهه سمات الألم. وبعدها ببضعة أيام، أتى يكلمني في موقف السيارات أمام المستشفى، يظن أنني أحمل قداحة لكي يشعل بها سيجارته. لوقع خطواته هذه المرة قرقعة مختلفة، لم تبدُ على وجهه سمات الخجل من ساقه الاصطناعية الجديدة!

يحاول ماتاواشيش أن يقنعني أنه هندي أحمر أصيل؛ ابن الغابة والطبيعة. يفضل أن يسير على قدمين عاريتين مقتفيًا أثر ذئب فضي، حتى تهترئ إحداهما، على أن يزور مدينة الرجل الأبيض. إنه يفضل التبغ الذي قدمه أجداده للرجل الأبيض، أكثر مما يفضل علاجات السكري التي يقدمها له. الرجل الأبيض يحاول أن يقنعني أيضًا، أن ماتاواشيش مهما قدمت له من مستلزمات الحضارة، فسيظل ابن غابته.

لكن ماتاواشيش يأبى إلا أن يخيب ظني في تمسكه بالغابة، فألتقي به أمام السينما يترنح ولا يعرج، لا قرقعة لساقه. يمد يدًا يطلب الفكة، وباليد الأخرى يشرب من قنينة بيرة مخبأة داخل كيس بني. لا يمانع ماتاواشيش في أن يشرب سموم الرجل الأبيض، ولا يمتنع عن صدقات الرجل الأبيض الذي يبدو أنه الوحيد الذي يشفق عليه في هذه المدينة الكوسموبولوتانية.

يحمل ماتاواشيش اسمًا أوّلًا إنجليزيًا ويعيش في مقاطعة فرنسية. جايمس ماتاواشيش لا يجيد الفرنسية، لكنه يتمتع بالإعفاءات الضريبية من المقاطعة الكويبكية. ولأنه ليس الهندي الأحمر الأخير، فإنه يعتقد أن من حقه ممارسة كل الأدوار اللائقة بهندي أحمر ما قبل الأخير، يوشك على الانقراض ولا ينقرض، بما في ذلك دور الأقلية القابلة للاستقطاب في المعارك السياسية.

ماتاواشيش ليس مجرد عالة على الضمان الاجتماعي كما كنت أظن، إنه تاجر يسهم مع الرجل الأبيض في الاقتصاد الكندي. ولديه محلات بعدد المحطات والموتيلات والمطاعم التي يمتلكها الرجل الأبيض، على الطريق ما بين مونتريال وكاناواكي يبيع فيها التبغ الأصلي والخرز للسياح الأمريكيّين.

الرجل الأبيض على عكس ما يدور في أذهانكم، يفخر كثيرًا بماتاواشيش. وقف ماتاواشيش بجانب الرجل الأبيض في حفل افتتاح الألعاب الأولمبية الشتوية في فانكوفر وخلفه كل التعويذات والأيقونات الكندية: شجرة القيقب والدب الأبيض وحيوان الراكون، ولا أدري لماذا بدا لي ماتاواشيش في التلفاز، وهو بكامل حلته التقليدية عاري الصدر، كأنه يرتجف من البرد. صديقي كلود يظنّ أنه مجرد وهم بصري، ماتاواشيش لا يرتعش: «إنها ريشة النسر على رأسه ترفرف في الهواء!»

في المهرجان العالمي للكوميديا (Just For Laughs) اكتشف الناس حس الفكاهة لدى ماتاواشيش، وأنه أكثر من مجرد رجل جاد،

يتظاهر بالحزن. لقد كنت في غاية الحماس عندما اشتريت التذكرة في يوم الإثنيّات الكوميدي. كل الإثنيات المهاجرة كانت ممثلة: الطليان والإيرلنديون واليونانيون. حتى الإيرانيّون واللّبنانيّون، قد أصبحوا مضحكين مؤخرًا للكنديين. وقف ماتاواشيش بينهم، كهندي أحمر ما قبل أخير، يوشك أن ينقرض ولا ينقرض. أمّة وحده، تجيد السخرية من ذاتها، ولا تأخذ نفسها بجدية طوال الوقت.

إلا أن أكثر ما أعجبني في ماتاواشيش هو حبه المطلق للطبيعة، وغيرته على الحياة الفطرية والحيوانات المستوطنة في كندا. كان ذلك واضحًا في حديثه عن الدب القطبي، كان ماتاواشيش يستعرض الأسباب التي تهدد الدب القطبي بالانقراض، كما ينبغي لأي مرشد متمكن في حديقة الحيوانات. يقول إنّ الاحتباس الحراري قد أجبر الدب القطبي على مهاجرة الكثير من أراضيه، وإنّ الأراضي التي ذابت شكلت حواجز طبيعية أمام هجرات التزاوج، وإنّ مشكلة الدب تكمن في ضعف خصوبته، فحتى حينما يتدخل علماء الأحياء في تسهيل لقاءات التزاوج، تفشل تلك التجارب في تحقيق التكاثر.

أمّا أنا فقد اختلفت مع ماتاواشيش، إذ اعتقدت أن مشكلة الدب القطبي تكمن في عجزه الجنسي، فكيف يمكن أن يفكر في التكاثر بعد أن خسر أراضيه ووجد بني البشر ينقلونه كيفما شاؤوا، ويطالبونه بالأداء في تجارب مكشوفة للجميع، هذا ما طرأ في ذهني ساعتها، في شهوة من الاستطراد الفكري، لكني لم أجرؤ على قوله في وجه ماتاواشيش.

السر الذي يعرفه الجميع ويتظاهرون بجهله، حتى ماتاواشيش، أن ماتاواشيش ليس الهندي الأحمر ما قبل الأخير، إنه في واقع الأمر الهندي الأحمر الأخير. لكن التظاهر بأن هناك هنديًا أحمر آخر وأخيرًا، قد نراه في أي لحظة، أو عند أي زاوية، يجعل حكاية الإبادة غير قابلة للتصديق، ويمكّن ماتاواشيش من ممارسة دور الهندي الأحمر الذي يوشك على الانقراض، ولا ينقرض.

أبريل 2011، مونتريال.

القصص الجديرة بعازفة الفلوت الجميلة

تكفيك من الرؤية ثانيتان، تزيد أو تقل، لتشتعل مخيلتكما في افتعال حكايا الشجن حول الصبية التي عزفت الفلوت ذات مساء مونتريالي ممطر، ويكفيك صاحبان ليكتمل المشهد الخاطف، مثل قدح عود ثقاب، يشتعل خيالاً بلا ذكريات شجن يتكئ عليها، ليوقد نارًا من الحكايات الدافئة، تجيره من برد الماضي المقفر.

أنت رأيت، ومن خلال نافذة سيارة لا تملك التوقف لمشهد عذب، حسناء مراهقة تنفخ في الفلوت ألحانًا بدا لك -وإن لم تسمعها- أنها شجية. يقف أمامها فتًى وسيم يحمل لعينيها الناعستين -حتمًا ستكونان ناعستين في ذاكرتك إن لم تكونا كذلك- إضبارة النوتات الموسيقية التي بدا أنها تختزل ألحانًا شجية، وإن لم تسمعها. وصاحبك رأى ما وراء هذين الرفيقين، وأخبرك بأنهما كانا يختبئان من المطر تحت مظلة محل ورود مغلق، إذ وصفت له منظر الرفيقين. وهكذا ما كان للمشهد الخاطف وخلفيته أن يكتمل في الوعي إلا بعيني صاحبين، أحدهما يقود سيارة لا تملك التوقف لمشهد عذب.

عازفة الفلوت الجميلة، لم تقف تحت مظلة محل ورود مغلق، الساعة العاشرة مساء، في ليلة ليست من أيام العطل، في شارع مونتريالي مغمور، لتسجل حكاية غير جديرة بالرواية. لكن، أي القصص جديرة بعازفة الفلوت ورفيقها الوفيّ، حامل إضبارة النوتات الموسيقية ذات مساء ممطر؟

- إنّها السنوية الأولى لميلاد حبهما الغض، وبعد ميعاد رومانسي اشتمل على ثلاث جولات من البولنغ، وصحنين من الباستا، ومخروط مثلّجات عملاق من (بين آند جيري) تناوبَا على لعقه، داهمهما المطر وهما ينتظران الحافلة ليغادرا إلى المنزل قبل توبيخ الوالدين على التأخر عن ميعاد النوم. ولأنها أصرت أن تجلب الفلوت الذي جمعهما ذات حصة موسيقا في المدرسة، فقد كانا يتسليان بمقطوعة عذبة تحت مظلة محل ورود بانتظار الحافلة.

- رفيقها الفتى الذي يحمل إضبارة النوتات، معلم فلوت يوشك أن يقع في حبها. استأجرته والدتها ليعلمها العزف بالساعة، وعلى الرغم من أنه يعلم أن هذه الدقائق التي يلقن فيها سوناتا أخرى بانتظار حافلة تلميذته غير مدفوعة الثمن، فإنه لا يعلم أن تلميذته أجابت دعوته لمرافقتها إلى موقف الحافلات في الجو الماطر لأنها قد أحبته فعلًا!

- رفيقها معلم الفلوت الذي أحبّها فعلًا وهي لمّا تعلم، يلقنها، بحزنِ مساءٍ باكٍ، سوناتا صعبة تريد أن تتقنها لتلفت نظر شخص آخر أحبته!

- إنهما يتدربان على مقطوعة موسيقية من أجل الحفل الموسيقي المدرسي، ما يعنيهما ليس الحفل، بل حضور والدها الذي ما عاد يبهجه شيء منذ وفاة أمها التي كانت تعزف الفلوت، سوى رؤية عينيها الناعستين الشبيهتين بعيني مفقودته عندما تعزف الفلوت.

- عازفة الفلوت الجميلة وأخوها حامل إضبارة النوتات

الموسيقية، بعد أن جمعا ما لديهما في الحصالات، واستدانا كل ما يمكنهما استدانته من الأصدقاء، ما زال ينقصهما أربعة وثلاثون دولارًا. إنهما مستعدان للعزف تحت المطر في انتظار دولارات المارة حتى الدولار الرابع والثلاثين. إنها قيمة مفاجأة أمهما المنهكة التي خسرت أحد ثدييها قبل ثلاثة أسابيع، وستخسر شعرها بعد أسبوع، بباروكة شعر جديرة بها!

تعلمان أنت وصاحبك أن بإمكانكما العودة بالسيارة، والوقوف لقطف القصة الحقيقية لعازفة الفلوت الحسناء، وسماع مقطوعتها الجميلة. يصعب تصور أن القصة الحقيقية وراء ذاك المشهد الحالم لن تكون جميلة، راقية أو حتى جديرة بالرواية، كما يصعب تصور أن المعزوفة المصاحبة له لن تكون عذبة، لكنكما تقرران عدم العودة وترك مخيّلتيكما مفتوحتين على كلّ الاحتمالات، فقصة عازفة الفلوت الجميلة جديرة بأن تكون متاحة لكل القصص الجديرة بالرواية.

يناير 2011، مونتريال.

الغافلون عن جوناثان بميدان بيكاديللي

توجد في لندن أكثر من ثلاثة آلاف كاميرا مراقبة، لا تعني أي شيء لجوناثان، ما عدا الإحدى عشرة المسلطة على ميدان بيكاديللي. جوناثان معني برصد كل تلك الشاشات، إلا أن الكاميرا الأكثر قربًا إلى قلبه؛ هي كاميرا رقم 3 حينما تحين الساعة الثامنة صباحًا، وهو ما يعني أن ذات الشعر الأحمر ستظهر في الركن الأعلى والأيسر من الشاشة لتفتح محل الورود، الواقع في أحد الشوارع الحجرية التي تصب في ميدان بيكاديللي. كان بإمكان جوناثان أن يخفي ولهه بذات الشعر الأحمر، لولا أن رتابة العمل تستوجب البحث عن الأنماط والسلوكيات المتكررة والثرثرة حولها، وهو ما جعل صاحبة محل الورود وما تلبسه كل يوم، حديث جوناثان وزميله سكوت الصباحي مع كوب النسكافيه.

ليس من السهل متابعة إحدى عشرة شاشة، حتى بوجود زميل يساعدك، لذلك فإنّ جوناثان يعتمد في عمله على إدراك الأنماط السلوكية المعتادة وإهمالها، والتفتيش عن كل ما يخرج عن المألوف ومتابعته، فتجمع الناس حول الساحر الذي يظهر في الشاشة رقم 8 كل سبت جدير بالإهمال، خصوصًا حينما تعرض شاشة 5 جماعة من الخضر المعارضين للحرب على العراق، وتجمّع عوائل خليجية تحمل مشتريات أمام مقهًى، لا يثير الارتياب كما يثيره ظهوره خمسة من الملتحين يرتدون ثيابًا باكستانية، ورقص مجموعة من البريك دانسرز -وإن كان ممتعًا للمشاهدة- ينبغي ألا يشغله عن مجموعة البيض حليقي الرؤوس

الذين يبدون كالنازيين الجدد. جوناثان يعلم أن عمله يعتمد على تصنيف البشر والأحكام المسبقة، لكنه لا يعترف بذلك، إنها الحقيقة المسكوت عنها في عمله، والاعتراف بها قد يعرضه للمساءلة القانونية.

***

يعتقد البعض أن الحرباء الأمازونية تتخذ من ميزة التلون وسيلة للاحتماء وتجنب الأعداء فقط، لكنّ الأمر أكثر تعقيدًا، فهي تستخدم هذه الخاصية البيولوجية المدهشة للتواصل مع بني جنسها، وبث إشارات التحذير أو إشارات التزاوج في ما بينها، وفي أحيان أخرى تلجأ إلى التماهي مع المحيط للظفر بغدائها. في هذا التصوير المبطّأ، يمكننا ملاحظة كيف تتنكر الحرباء الأمازونية بلون أخضر يشبه الغصن الذي تتعلق به، وهي تطلق لسانها الدبق كقذيفة باتجاه فراشة للتو حطت على غصن مقابل.

***

يستحيل أن تراقب كل هؤلاء الناس ولا تتورط في ألفة تجاههم، حتى إن كنت لا تعرفهم ولا يعرفونك، لكن تكرار ظهورهم في شاشتك يجعلك تظن أنك تعرفهم. ذات الشعر الأحمر تأتي كل صباح بحقيبة نسائية ضخمة وكعب عالٍ، تضع حقيبتها على الأرض ثم تجلس القرفصاء لتفتح قفل المحل، فتبدأ محاولاتها المكرورة لرفع بابه الحديدي، ثم ترفع مظلته وتبدأ بإخراج آجار الزهور أمامه. يودّ جوناثان أن يقترح عليها يومًا تزييت مفاصل الباب الحديدي والتخلي عن حقيبتها الضخمة، سيجعل مهمتها الصباحية أسهل، لكنه يعرفها ولا تعرفه!

هناك أيضًا متسول يعزف الغيتار، يرتدي جينزًا مقطعًا ومعطفًا مرقعًا يظهر في شاشة 9. جوناثان لا يستطيع أن يسمع عزفه عبر الشاشة، لكن سكوت يقول إنّه مر بجانبه يومًا وكان عزفه جميلًا، يود جوناثان أن يقول له إنّ مظهره مثير للشفقة، إنما من الأفضل له أن يتخلى عن قبعته المخملية الفاخرة التي قد تخسره بعض التبرعات، لكنه يعرفه والمتسول لا يعرفه!

وكل جمعة عند العاشرة إلا خمس، تخرج عجوز حدباء وحيدة من متجر للغذائيات، محملة بأكياس المؤونة الأسبوعية، يطل من أكمامها رغيفان طويلان من الخبز الفرنسي، ثم تقف تنتظر الحافلة. لا يدري جوناثان لم لا يتطوع أحد أبدًا لمساعدتها وهي تركب الحافلة، يود لو يحمل الأكياس معها يومًا، لكنه يعرفها ولا تعرفه!

***

إن الشيتا/ الفهد الصياد أسرع المخلوقات على البسيطة، حيث تصل سرعته عند المطاردة إلى 120 كيلومترًا في الساعة، وبذلك فلا يتغلب على سرعته سوى الصقر لحظة الانقضاض، فقد تبلغ سرعته هبوطًا 300كيلومترٍ في الساعة. ويستطيع الفهد الصياد الانطلاق من الوقوف التام إلى 100 كيلومترٍ في الساعة في ثلاث ثوانٍ، وهو التسارع ذاته الذي تمتلكه سيارة الفيراري، إلا أنه لا يستطيع الاستمرار بسرعته تلك طويلًا، فالتفاعلات التي تحدث في عضلاته تؤدي إلى ارتفاع حاد في حرارة جسمه قد يؤدي إلى إتلاف خلايا دماغه لو استمر، ولذلك يستطيع الغزال -وجبته المفضلة- الإفلات منه في بعض الأحيان. صحيح أن

سرعة الغزال لا تتجاوز 60 كيلومترًا في الساعة، إنما قدرته على المناورة والتغيير المباغت لمساره، قادران على إنهاك مطارديه، وحينها سيقضي الفهد الصياد بقية يومه صائمًا منهكًا. لذا يمكن القول إنّ الخصلة الأهم في الفهد الصياد هي الصبر مترصدًا بين الأعشاب من حيث يغفل عنه الغزال المقترب، وهي أهم في تحديد إن كان سيفترس في ذاك اليوم أم سيجوع من سرعته.

لقد داهم جوناثان التثاؤب وهو يشاهد قناته المفضلة ناشيونال جيوغرافيك وتقريرها المثير عن الفهد الصياد، ويمارس هوايته اليومية بمشاهدة برامج الطبيعة، إنها العاشرة مساءً، وعليه أن يغير القناة إلى قناة الطقس، كما ينبغي لِلَنْدَنيّ أصيل، يود أن يعرف إن كان في حاجة إلى مظلة غدًا أم إلى نظارة شمسية.

***

لم يبال جوناثان بالتوبيخ الذي تلقاه من مديره على تأخره عن العمل، كما لم يبال بابتلال ملابسه ومعطفه، كل ذلك بدا ثمنًا مقبولًا للتعرف على ذات الشعر الأحمر: هيلين. والظفر برقمها، استطاع جوناثان التظاهر بأنه مار بالصدفة في الجو الماطر من أمام محل هيلين، وهي تحاول رفع باب المحل الثقيل، فساعدها في رفعه، وقد أوشك أن يضحك وهي تقول خجلًا إنّها احتاجت إلى مساعدته في رفع الباب: «كل يوم أقول لنفسي إنّ عليّ تزييت مفاصل هذا الباب، ولكنّني أؤجل هذه المهمة إلى يوم آخر». بدهاء استطاع جوناثان أن يدخل المحل ويدعي إعجابه بالورود، ما دفع هيلين إلى أن تقبل مساعدته في إخراج آجار الزهور، ثم تقبل الخروج معه في موعد لشرب القهوة وأكل الفطائر.

كان سكوت يراقب المشهد في شاشة رقم 3 بدهشة وإعجاب، لذلك لم يمتلك سوى ضحكة وغمزة يستقبل بهما جوناثان المبلل والموبّخ والفخور بذاته في الوقت نفسه.

ساءل جوناثان نفسه حينما ذهبت سكرة موقفه مع هيلين، إن كان سيساعد العجوز الحدباء يومًا في حمل الأكياس، أو لماذا لم يبلّغ رؤساءه حينما شاهد مجموعة من المتزلجين يخطفون قبعة عازف الغيتار المثقلة بحسنات العابرين. ربما لأنه استثقل كتابة التقارير الروتينية التي يتطلبها التبليغ عن أي حادثة مرصودة؟ أو ربما لأن مديره لا يعبأ سوى بالحوادث الأمنية والإرهابية؟ أو ربما لأنه شعر أن المتسول قد يكون مخادعًا يستحق السرقة، أو لعله وإن بلّغ لن يبذل رجال الشرطة جهدًا حقيقيًا في استعادة المبلغ التافه، وربما علينا في بعض الأحيان ترك الطبيعة تأخذ مجراها. شعر جوناثان المبلل والموبّخ والفخور بنفسه والخجول من تقاعسها في الوقت ذاته بأن الفكرة الأخيرة تحديدًا ليست وليدة أفكاره، ولكنه عجز عن تذكّر مصدرها!

***

يستمتع الأسد بالتشمس والقيلولة، فيما تهرع اللّبوات إلى جلب الغذاء له ولأشبالهن، يمكننا أن نرى في هذا المشهد كيف تختبئ لبوتان في الأحراش بانتظار من يتلكأ من قطيع الجاموس الذي يشرب من العين، ولم تمض ساعة حتى تأخرت جاموسة وابنها عن القطيع الذي حث السير مبتعدًا عن العين، وهكذا تنطلق اللبوتان بسرعة من خلف الأحراش فيتبعثر القطيع، وتنقضّان على الجاموسة، يمكننا ملاحظة التقنية الفطرية والتنسيق

الغريزي بين اللبوتين في الانقضاض على كائن يضعفهما حجمًا. فبينما تقفز لبوة بكل قوتها على جسد الفريسة فتطرحها، تطبق الأخرى فكَّيها على عنقها كاتمة أنفاسها، بينما ينظر الوليد الذي تخلى عنه القطيع مرعوبًا!

شعر مصوّرونا في ناشينونال جيوغرافيك بأن تلك قصة وانتهت، وأن دورة الحياة كما ينبغي اكتملت، وأنّ الحكاية الجديدة الجديرة بالتوثيق، ليست عودة اللبوتين بالفريسة إلى عرين الأسد، بل بقاء الوليد الوحيد إذ يحاول اللحاق بالقطيع، مترنحًا بغضاضة خطواته، وربما حزنه!

واختار مصوّرونا تصوير تلك الرحلة كما تشاهدون، مواجهين بذلك في أنفسهم الخيار الأخلاقي، بين التدخل ومساعدة الجاموس الصغير، وبين ترك الطبيعة تأخذ مجراها، ومعركة البقاء تبلغ مداها الطبيعي، فكما لم يتدخلوا لحماية الجاموسة لأن للّبوتين أيضًا أطفالًا يطعمانهم، فينبغي لهم أيضًا ألّا يتدخلوا في معركة البقاء التي يواجهها الوليد، لكنهم لم يظنوا أنها ستكون قصيرة إلى هذا الحد. حانت الظهيرة الآن كما تلاحظون، والجاموس الصغير التائه يترنح من الحر والجوع، في حين تحوم نسور في السماء بانتظار تخلّيه عن الحياة، وبقدر ما كانت خطواته تتباطأ، كانت النسور تقترب في تحليقها من الأرض، وما كاد يسقط على الأرض ويتوقف عن التنفس، حتى حطت ساقا أحد النسور على الأرض، حيث بدأ يقترب مستكشفًا.

***

أحصى جوناثان تسع كاميرات مراقبة في طريق عودته من العمل. يعرفها واحدة واحدة من كثرة استخدامه للطريق سيرًا على الأقدام، ويستطيع التكهن بمجالها البصري، لكنه لا يعلم إن كانت كلها تخضع لمراقبة بشرية أم مراقبة حاسوبية، أم أنها مجرد كاميرات تسجيلية لا يراقبها أحد؛ وإنما يُرجع إلى أرشيفها حينما تقع حادثة. الكاميرا الأولى هي كاميرا المصعد التي شعر بالخجل منها إذ تذكر أنه نسي شيئًا مهمًا بعد خروجه من الحمام، فأغلق سحّاب بنطاله بأكثر درجات الحيطة والمواربة. أما الكاميرا التالية فهي الكاميرا رقم واحد التي تصور مدخل مبنى عمله، ثم تتوالى الكاميرات التي توثق خطواته اليومية إلى منزله.

ليس كل طريقه مغطًى بالكاميرات، إذ تخلو بعض البقع في مسيره من الأعين العوراء، ولذلك فإنّه يمارس الخطى الواثقة حينما تصوره إحدى الكاميرات، بينما تبدو خطواته مرعوبة ومتسارعة حيث لا ترصده عين، خصوصًا في المئة ياردة المظلمة، ما بين كاميرا موقف الحافلات، وكاميرا محل (سافين إيليفين). وبعينيه المعتادتين على تصنيف البشر، افترض أن الشباب السود الثلاثة ليسوا مجرد مسالمين يتسامرون أغاني الراب في الركن المظلم الخالي من الكاميرات. أما هم إذ لاحظوا خطوات جوناثان تزداد تسارعًا وتلعثمًا ورعبًا، فقد افترضوا بأعينهم المعتادة على تصنيف البشر، أنه محمل بما يستحق السرقة!

-هيه يا صاح! أعرني بعضًا من الفكّة.

صرخ أحدهم. وبدأت المطاردة عندما لم يتورع جوناثان عن الجري، فركله أحدهم بأقصى سرعته فسقط، ثم أمسك الآخر شاله الملتفّ حول عنقه ليشغله بالتقاط أنفاسه، وأفرغ الثالث جيوبه من المحفظة والجوال، وأخذ جزمته الإيطالية الفاخرة والساعة التي أهدته إياها هيلين مؤخرًا. وعندما حاول المقاومة والركل، تلقى طعنة في بطنه، ثمّ هرب الثلاثة بسرعة من زقاق يعلم جوناثان أنه خال من كاميرات المراقبة. وكان عليه أن يزحف عشرين ياردة مخلفًا وراءه ذيلًا من الدماء، ليقع في مجال كاميرا (سافين إيليفين) على أمل أن يختار أحدهم خيار التدخل لمساعدته، بدلًا من خيار ترك الطبيعة تأخذ مجراها.

نوفمبر2011 ، مونتريال.

لماذا ستسقط بغداد؟

«إنّ بغداد مصممة، شعبًا وولاة أمر، على أن تجعل مغول العصر ينتحرون على أسوارها».
صدّام، 2003.

لنقل إنّني هولاكو، وإنني قد ولدت عام 1217 للميلاد. أعدّني والدي تولوي خان لمستقبل عظيم، وعلى سهول منغوليا الخضراء علمني ركوب الخيل فور أن أجدت الركض، وطلب مني قتل الطيور والأرانب رماية، ونحرًا بالسيف والخنجر كلما استطعت، وعندما صارت مشاهدة الحيوانات التي قنصتها وهي تلفظ أنفاسها تسرني، ولاحظ والدي في عيني ذلك؛ قال: «لتفعل ذلك بخصومك، فستكون عظيمًا وسيكون لك الكثير من الخصوم يومًا».

لنقل إنّ جنكيز خان جدي، وإنّ قومي المغول قد ملّوا رؤية سهول منغوليا حمراء بدماء أهلها، ورضخوا لجدّي (قاهر العالم) كما سموه، ليوحّدوا به قبائل التتار، فيتوقفوا عن قتال بعضهم بعضًا ببؤس على هامش التاريخ وفتات العظمة، ويتركوا سهول منغوليا خضراء كما يليق بها، ويخضّبوا بلدانًا أخرى بالحمرة في سبيل بناء مجدهم وإمبراطوريتهم التي أصبحت بجيشي الأوسع في التاريخ.

لنقل إنّ مونكو (الخان العظيم) أخي، وأنه قد عرف ما أملكه من مهارة عسكرية، وطموح لا يتورع عن الفتك، فأعطاني عام

1255 للميلاد أفضل مقاتل من كل عشرة مقاتلين يملكهم، وطلب مني الاتجاه غربًا أقصى ما استطعت بجيشي، والرحمة بمن يستسلم والتدمير لمن يقاوم.

النصيحة الأخيرة كانت الأسهل عليّ في التّطبيق، كان لجيشي أبواق تبث الرعب قبل أن يقترب، وإن اقترب يمارس الرعب كما يجب، كنّا نحمل مع جيشنا جثث أعدائنا المدمَّرين، فنقذفها بالمجانيق داخل مدن أعدائنا التاليين، لننشر الرعب والموت والمرض.

لنقل إنّ زوجتي طقز خاتون، وإنّها كانت نسطورية مسيحية، وإن شوقها إلى بيت المقدس جعلها تغريني ببغداد الخلافة عن روما البابوية، لقد وعدتني أن النبلاء من ديانتها سيدعمون حملتي العسكرية وسيتركون لي كنوز بغداد ودمشق.

لنقل إنّني وإذ تراءت لي أسوار بغداد كلؤلؤة تلتمع إغواءً، وترتجف خوفًا فوق نهر دجلة؛ راسلت حاكمها المستعصم بالله: *«لا مناص من الاستسلام، وإلا فسأقبض عليك سواء اختبأت في الأرض أم في الجنة»*. ولنقل إنّ ردّه استفزني: *«إن غضب الله سيحل عليّ إن نلت منه فهو خليفة المسلمين»*. ألا يعلم أن وعيدًا كهذا لا يليق بمن لا يملك في مواجهتي سوى لقب أجوف، ومدينة من المترفين، ووزراء متخالفين لا يستطيع أن يضمن ولاءهم، وإن وزيره ابن العلقمي قد أخبرني بكل أسرار المدينة وحصونها.

لنقل إنّ جيشي تسلّق أسوار المدينة بالرعب، واجتاح بيوتها وكنوزها بالطمع، وحرق مكتباتها ومستشفياتها بالحسد. ودانت المدينة لي دون مقاومة، فحينما كانت الكتب تقفز من دار الحكمة

إلى دجلة هربًا من الحريق، كان سكان بغداد مطأطئين رؤوسهم عند النهر، في انتظار الرجل من جيشي ليقصف رؤوسهم في النهر. فلنقل إنّ اليوم الذي رأيت فيه دجلة مخضبًا بحمرة الحبر والدماء؛ كان من أسعد أيام حياتي، ولا يضاهيه سعادة سوى اليوم الذي سمعت فيه صرخات المستعصم المكتومة، تنفذ إلى مسامعي عبر سجادته الفاخرة التي لُفَّ بها، وعصي جنودي وحوافر خيولي تهشم جسده حتى الموت.

حسنًا، والآن لنقل إنّني علمت، وعلى قدر ما غضبت؛ فقد شعرت بالفخر إذ علمت، أنّه وبعد سقوط بغداد في قبضتي بسبع قرون، اختار حاكم بغداد أن يشبّه غزاتها في عهده بقومي، ويعيب خصومه بسمعتي.

ولنقل إنّني قبل أن يختارني أخي مونكو لحملته العسكرية، قبل أن تغريني زوجتي ببغداد، قبل أن أستفيد من خيانة ابن العلقمي، قبل ذلك كله، وبينما يدرّبني أبي، وقعت من الخيل فدُقّت عنقي، أو أنني قبل أن يعدّني أبي، قُتلت في المهد في إحدى الغزوات التي حرّضتها معارك توحيد التتار التي خاضها جدي جنكيز.

يمكننا القول حينها، وبمعقولية القول ذاتها بحدوثي في التاريخ، أو موتي قبل حدوثي، أن التتار الذين ملّوا الاقتتال ورغبوا في المجد، لن يعدموا عظيمًا يوحّدهم كجنكيز، أو قائدًا مثلي يقودهم إلى المجد، إنّهم ليسوا في حاجة إلى إغواء طقز خاتون للحيدة عن الأراضي المثلجة المتأخرة واقتناص الحواضر العظيمة كبغداد. إنّ بغداد التي ثملت من الترف وتناست ثمنه، لن تعدم قائدًا ضعيفًا كالمستعصم بالله. إنّ الخلافة التي لم تعد

سوى لقبٍ للطغيان لن تُعدم خائنًا كابن العلقمي، وحينها؛ فلن يعدم حاكم بغداد القادم من بعد ذلك بقرون عديدة، تشبيهًا ولقبًا خاويًا يعيب به غزاة مدينته الجدد.

ديسمبر2011 ، فرانكفورت.

إمباير ستايت

اختبرت الإمباير ستايت من الداخل عشرات المرات، أمّا هذه المرة، فهي الأولى التي اختبره فيها من الخارج!

آخر ما أذكره أنني كنت على الناصية بين الجادة الخامسة والشارع الرابع والثلاثين غربًا، ولا أدري كيف ومتى أصبحت أحلّق أمام طوابق الإمباير ستايت المئة واثنين. هذه الحالة تذكرني بالمرة التي قفزت فيها من منصة المسبح ذات الأمتار العشرة في طفولتي. بعد شقلبتين عبثيّتين مرعبتين، ينعدم فيهما إحساسك بالجاذبية، وتفقد وعيك بالفوق والتحت، يتباطأ الزمن فتتيقظ حواسك لكل ما حولك ويتسارع تفكيرك، ولا يردّه إلى تسارعه المعتاد سوى ارتطامك بصفحة الماء. هذه الحالة التي أمر بها أمام الإمباير ستايت، تذكرني بالثلاثة والثلاثين منتحرًا الذين قفزوا من هذا المبنى العملاق، تحديدًا: إيفيلن ماكهيل. لقد غادرت الحياة بكامل أناقتها، بجسد حافظ على تماسكه على الرغم من سقوطه من خمسة وثمانين طابقًا. فسميت صورتها تلك بالانتحار الأجمل على الإطلاق.

عمومًا، سأتفاجأ كثيرًا لو أصبحت المنتحر الرابع والثلاثين، ليست لي قصة حب أليمة كالآنسة ماكهيل تسوّغ انتحاري، ولم أتعرض لظلم كالظلم الذي شعر به المنتحر رقم واحد، كان أحد بنّائي الإمباير ستايت المُسَرّحين من عملهم. أعجز الآن عن تذكر ما إذا كان من البنائين المهاجرين من أوروبا، أم من رجال قبيلة الموهاوك الهندية الذين جُلبوا من كاناواكي بجانب مونتريال،

فقط لرفع المبنى الإمبراطوري الأعلى والأطول والأعظم في زمانه.

عمومًا، تلك قصة لا تخدم إدراكي بما يحصل لي حاليًا. عملت في هذا المبنى سبع سنوات، وعليّ الآن أن أتأمل طوابقه التي تدور أمام عيني كبكرة فيلم، بحثًا عن أسباب لحالة التحليق الحر هذه.

طابق:

هذا الطابق غير مفيد بالمرة، كل ما أشاهده هو صالة طعام ضخمة وأناس يأكلون. المبنى مملوء بصالات الطعام، لكن صالة الطعام هذه تبدو فاخرة، وملأى بأناس ذوي ثيابٍ نظيفة يأكلون وجباتهم الفارهة، يأكلون بشراهة لا تقل عن شراهة عمال النظافة -بثيابهم الأقل نظافة- عند أكلهم سندوتشات السجق من العربة الواقفة قريبًا من مبنى الإمباير ستايت.

طابق:

لا شيء يوحي بالتناقض في اجتماع كل هذا العدد من الرجال، ببدلاتهم السوداء، وربطات العنق الفاخرة. يمكنني أيضًا ملاحظة حقائب السيمسونايت مركونة إلى جانب أحذيتهم الإيطالية الفاخرة. لا شيء يوحي بالتناقض في مجموعة من الرجال على طاولة اجتماعات، يتداولون في ما يبدو أنها صفقة مهمة. كل ما هنالك أنني أشعر بالتناقض حينما أشاهد هذا الطابق في اللحظة ذاتها التي أسمع فيها هتافات مسيرة «احتلوا وال ستريت» تحتنا!

طابق:

ثمة ما هو مريب في امرأة تختار الجلوس على مكتب العمل بدلًا من الجلوس على الكرسي أمامه، في أثناء ساعات الدوام، خصوصًا حينما تثني ساقًا فوق الأخرى من تحت تنورة قصيرة. يزداد الأمر ريبة بخلوّ المكتب من الناس، ما عدا رجلًا يجلس خلف المكتب واضعًا يده على ركبتها!

طابق:

أعتقد أنه مشهد مثير، أن تشاهد امتداد نيويورك من واجهة النادي في منتصف المبنى العملاق، أن تشاهد ذلك وأنت تحاول المحافظة على لياقتك بالجري على السير المتموضع بعناية -لكل المعنيّين والمعنيات برشاقة أجسامهم- أمام واجهة زجاجية مطلة على منظر خرافي لتضاريس مانهاتن العمرانية.

هناك الكثير ممن يتصببون عرقًا في هذا النادي المغلق والمكيف. آخر مرة رأيت فيها هذا العدد من البشر يتصببون عرقًا، كان قبل دقائق، حيث كان عمال الحفريات يمارسون عملهم في صيانة تضاريس مانهاتن أسفل النادي بعشرات الأمتار.

منصة إطلالة:

هناك بعض الناس لا يفكرون كثيرًا في ما قد يظنه الآخرون. قرّرت هذه المجموعة من الشبان والشابات الاحتفاء بنثر رذاذ زجاجة شامباين فاخرة من أعلى إطلالة في الإمباير ستايت. أنا، إذ أشاهد هذا الرذاذ يصيبني في أثناء تحليقي، لن أتأذى كثيرًا، ولن تساورني الظنون. لكن، أي ظنون ستساور المارة على الجادة الخامسة وهم يتلقون هذا الرذاذ في نهار مشمس، ماذا سيظن

المشـرّد الـذي شـاهدته قبـل ثـوان يتسـول أمـام الإمبايـر سـتايت، حينمـا يتلقـى قفـاه قطـرة لزجـة ذات رغـوة؟ أعتقـد أن الظـن الوحيـد المقبـول حينهـا، أن أحدهـم قـد قـرر البصـق علـى بؤسـه مـن سـطح ناطحـة السـحاب الإمبراطوريـة!

أعتقـد أننـي بـدأت أكتشـف شـيئًا مـن الحقيقـة إذ أشـاهد مانعـة الصواعـق تسـتدق بعـد أن شـاهدت منصـة الإطلالـة، أنـا لا أسـقط ولـم أحـاول الانتحـار، هنـاك تغيـر طـرأ فـي الجاذبيـة، جاذبيتـي أو جاذبيـة المبنـى، قـد حصـل فـي أثنـاء عودتـي إليـه مـن فسـحة الغـداء، وتحديـدًا بعـد مـروري بجانـب عربـة السـجّق، مسـيرة (احتلـوا وال سـتريت)، عمـال الحفريـات والمشـرّد المتسـول، هـذا التغيـر جعلنـي أتصاعـد وأتسـامى كبخـار أمـام المبنـى، أو أن المبنـى الإمبراطـوري قـد قـرر أن يسـقط أمامـي، ويمـارس محاولـة انتحـار جميلـة!

فبراير2012 ، مونتريال.

أجمل انتحار، مجلة الحياة، 1947، روبرت وايلز.

The Most Beautiful Suicide, Life Magazine 1947, by Robert Wiles.

ما لا يتصوره عابرو مطار ميونيخ

أربع ساعات ونصف، كافية لجعلك تشعر بالعبثية، وربما بالعدم، وتبدأ بمراجعة الأسئلة الوجودية في عقلك. على الرغم من أنك مارست معظم المرفهات والمغريات المتاحة، التي تبدو لا نهائية في مطار ميونيخ، فإنك لا تستطيع تجاوز شعورك بالضياع. لا تنتهي محلّات ولا أكشاك ولا خدمات مطار ميونيخ. الأسواق الحرة، المطاعم السريعة والأخرى التي تقدم المأكولات الفاخرة، المقاهي والحانات، حتى فرع سلسلة (خبز وقهوة) الألمانية، التي تمعن في إضافة العبث إلى وعيك بطريقة جذابة، فتقدم لك حساء اللوبستر في قدح يليق بالقهوة، بينما تقدم لك اللاتيه في وعاء سيراميكي يليق بالحساء.

بعد أربع ساعات ونصف، لا مفر لك من الملل والشعور بالوحدة، لا يساعدك بذلك تقلّبك في رواية الحجلة لكورتثار في حانة الطيارين، ولا قراءتك لمقالات الناشيونال جيوغرافيك في مقهى ستاربكس، ولا تلقيك تدليكًا للرقبة والكتفين في النادي الصحي في المطار بعد رحلة عبر الأطلنطي اختبرت قدرة جسدك على تحمل المقاعد السياحية. كل تلك الخيارات لا تستطيع منعك من الشعور بالاستغلال والاستخفاف بقيمتك البشرية، خصوصًا عندما تقول لك موظفة اللوفتهانزا إنّ توفير مكان مناسب للراحة والنوم ليس من مسؤولياتها، حتى لو كانت رحلتك التالية على الخطوط ذاتها بعد اثنتي عشرة ساعة، وتستعيد في ذهنك فيلم توم هانكس (تيرمنال) وتشعر بتعلقك باللّا مكان واللّا زمان،

خصوصًا بعد (جت لاق) مع حركة دوران الأرض، يضيف إلى يومك ساعات لا يستحقها عمرك. وبعد متابعتك لساعات المطار التي تعرض مواقيت لا قيمة لها في وطنك أو مهجرك، تجد أنّك قد بتّ مسجونًا الآن بين السماء والأرض. لست في طائرة تمارس حرية التحليق، ولا تملك تأشيرات مناسبة تتيح لك مغادرة السجن المسمى مطار ميونيخ، لتجد فندقًا يليق بإنسانيتك للنوم.

كلّ ما هو متاح للنوم في هذا المطار الذي يكاد يصبح مولًا عملاقًا أو كرنفالًا مملوءًا بالملهيات التي تتسابق إلى نقودك، هو المقاعد المتجاورة التي يتهافت على حجزها المسافرون بأجسادهم المستلقية من وعثاء السفر. أو أكشاك النوم الآلية المنثورة في صالات المطار، التي تبيع لك سريرًا بالساعة، وإمعانًا في الاستغلال تبيعه بالفيزا دونما وسيط بشري، وتشترط عليك ترتيب السرير من بعدك، وأن تكون مسؤولًا وحدك عن سلامتك ومقتنياتك. في تلك اللحظة، اللحظة التي تتلو فيها غرفة نوم آلية شروطها عليك، ترى الرأسمالية كسمكة قرش عملاقة تتأهب لالتهامك، فكّها السفلي أرض مطار ميونيخ بأكشاكه الناتئة كالنواجذ، وفكها العلوي سقف المطار الذي تتدلى منه اللّوحات الدعائية كالأنياب.

لا يكاد العابرون بمطار ميونيخ مثلي، يمضون ساعة من المشي أو التأمل حتى يتبين لهم، أن هذا المطار يتسع لكل أشكال المحلات الممكنة، لكن لا أعتقد أن أحدًا منهم يستطيع أن يتصور، مهما اتسع خياله، أنه سيجد في داخل المطار ملهى للرقص والتعري.

أنت الآن تجلس في مطعم إيطالي تحتسي الإسبرسو وتترك قراءة ناشيونال جيوغرافك، لتتأمل الستائر الحمراء التي كتب عليها (أكبر من 18 سنة، فضلًا) في المحل المقابل، وتتساءل بنهم معرفي خالص، عن نوعية المسافرين الذين سيختارون استغلال وقت الترانزيت للتلذذ بمشاهدة -وربما ملامسة- جسد أنثوي يتراقص أمامهم، كما تتساءل -وبصدق- عن نوعية الفتيات اللاتي لا يجدن مكانًا للتكسب من التعري الراقص إلا في هذا الملهى بمطار ميونيخ، وهل يختلفن شكلًا ومضمونًا عن الفتيات اللاتي يعملن في ذات المهنة في ملاهي وسط المدينة؟ هل هن أقل إغواءً -مثلًا- ليصبحن منتجًا ملائمًا لعملاء الترانزيت الذين وصل بهم اليأس من الهوى، ولوج ملهًى للتعرّي في المطار؟ أم أنّهن لا يردن أن يعرف الميونيخيون أنهن يعملن في هذه المهنة فاخترن عملاءهن من العابرين؟ ربما يجمعن المال بهذه الطريقة لتسديد الرسوم الجامعية على أمل الوصول إلى مهنة لائقة كالهندسة أو الطب، دون أن يلاحقهن ماضيهن في ملاهي وسط المدينة؟

وأنت، إذ تجلس أمام الملهى غارقًا في تساؤلاتك، تأمل أن ترى أحدهم يدخل الملهى لتضع تصورًا عن زبائنه، أو ترى إحداهن تدخل الملهى لتضع تصورًا عن راقصاته.

ثمة أفكار نصفها مجازًا بأنّها شيطانية، على الرغم من أننا لا نملك أي يقين بأن مصدرها كائن مخلوق من نار كالشيطان، ظني أن كثيرًا من تلك الأفكار والاختراعات التي ننسبها للشيطان لا تليق سوى بكائن يمتلك في داخله طهارة الماء وانحطاط

التراب، كائن كالعابرين بمطار ميونيخ لا يستطيعون -قبلًا- تصور وجود ملهًى للرقص والتعري في المطار، لكنّهم حينما يجدونه لا يمانعون أن يتقبّلوا أنّه فكرة أتت من عقل كائن لا يقل بشرية عنهم، وقد يجدون أنها فكرة مغرية وجديرة بالاستغلال لتمضية وقت الترانزيت، أو جديرة للتربُّح من ورائها.

المقالة التي أنهيت قراءتها في ناشيونال جيوغرافيك قبل أن ألاحظ الملهى، تتحدث عن توظيف علم نفس الحيوان لدراسة علم نفس الإنسان، وهي من الأفكار البشرية التي يصعب تصورها قبلًا، أي دراسة علم نفس الحيوان. كيف أن بعض المجالات لا يمكن دراستها في عالم الحيوان لأنها بشرية محضة، لا يجرؤ على ممارستها سوى كائن بشري، مثل الانتحار.

الكثير من المخترعات المنحطة التي عرفتها البشرية مثل الدعارة والعبودية والجريمة القابيلية الأولى: القتل، لا تليق سوى بكائن طيني يستطيع الامتعاض والخجل منها بعد ابتداعها وممارستها. هذه العبقرية في الانحطاط ربما هي ذات العبقرية في السمو التي يمتلكها البشر، وربما هي ذات العبقرية التي مكنت البشر من الوصول إلى اختراعات عظيمة كالطيران. ولعلها جعلت كائنًا مخلوقًا من بساطة النار التي لا تعرف سوى بعدٍ واحدٍ هو الحريق، يتكبر عن السجود لإعجاز الخلق في كائن طيني معقّد الأبعاد، يمتلك في داخله سمو الماء وانحطاط التراب، ولا يمانع في نسب أفكاره المنحطة إلى كائن من نار.

أربع ساعات ونصف وثلاثة أقداح من الإسبرسو كافية لجعلك تشعر بالعبثية، وربما العدم، ومراجعة الأسئلة الوجودية في عقلك.

يكاد الملل يقتلك، ويداك ترتجفان من نشوة الكافيين الممزوجة بالتوتر، ويبدو لك أن الشيء الوحيد الذي يليق بتسليتك وإشباع فضولك النهم، هو رؤية ما يخبئه الملهى خلف ستائره الحمراء التي كتب عليها: (أكبر من 18 سنة، فضلًا).

سحقًا!

يوليو2012 ، مونتريال.

حبة قهوة

أنا حبة قهوة، اسمي أرابيكا، اختار اسمي الطليان الذين يظنون أنني عربية بالتربة فقط. حسنًا، أنا، وعلى الرغم من أن أجدادي اقتيدوا من مرتفعات حضرموت منذ قرون، ما زلت أتحدث العربية وأفهم أمثالها، حتى الكاذبة منها!

ألم تلاحظوا أن كل بُن أرابيكا يملك ذات العبق، ذات الطعم وذات الذاكرة، مهما تغير المكان وأيّما كان الموسم؛ ذلك أننا لا نكف عن الحديث إلى بعضنا، وترتيل الأشعار وأساطير الأجداد على بعضنا في أثناء نضوجنا -وهي عادة تعلمناها من بادية الجزيرة الأولين- وإن كان زارعونا لا يعقلون، وكيف يعقلون وقد وجدنا أنفسنا في غابات بنما الماطرة، تزرعنا أيادٍ أعجمية مرهقة، لا تعني لهم أشعارنا ولا أمثالنا شيئًا.

كيف تصدق ماريّا التي تيبس باطن كفها من قطف حبوب القهوة أن (من جد وجد، ومن زرع حصد؟!) وهي تعلم أنها تزرع القهوة من أجل ماريّا أخرى، شمال القنال بمئات الأميال، تمارس عرض الأزياء واليوغا، وتحب شرب اللاتيه بحليب الصويا معدوم الدسم!

أتعلمون أنني مشهورة، فقد ظهرت في التلفاز مرتين، مرة في وثائقي على قناة الديسكفري، أنا حبة القهوة التي كانت على قمة كيس البن الأخضر في زاوية المشهد، وكانت أمامي مجموعة من الرجال الأمريكيّين من شركة ستاربكس، يشرحون بفخر لمزارعينا البنميين، الذين أُرغموا على ترك زراعة الذرة منذ سنوات قليلة،

كيف يحمصون القهوة، وكيف يتذوقونها. أعتقد أنني لم أظهر بهيئة جيدة؛ ربما كنت خائفةً بقدر ما كان البنميّون -الذين لا يعرفون سوى النبيذ شرابًا- مدهوشين.

لقد كانوا يحمصون أخواتي من حبات القهوة حتى تتفحم وجوههنّ، كما حمصت الشمس الحارقة وجه خوزيه -حبيب ماريا- لكثرة عمله في الحقل. إنهم لا يبالون ولا يعرفون أن العرب الذين علموهم شرب القهوة ما كانوا يحرقون أجدادي، ولا تزال قهوتهم خفيفة اللون. فذات النار التي يجلس البدوي إليها، يشاطر حبوب قهوته دِفأها!

ربّما يعاملوننا بهذه الطريقة لأنهم نسوا أو تناسوا، لكننا ما نسينا. ألم نكن يومًا سببًا في حضارتهم، وأداة في ثوراتهم، لقد كانوا لا يعرفون سوى الحانات؛ وما إن جاءتهم المقاهي من الشرق، حتى صاروا يتعاطون أفكار التنوير في زواياها مع القهوة، وبسببهم حوربنا؛ وبمرسوم من السلطان مراد الرابع طوردنا؛ فقط لأننا نشعل الأفكار. أقصد أنهم كانوا سيعاملونني معاملة أفضل، بدلًا من أن يحبسوني في هذه الثلاجات الباردة مع كل البن الذي اقتادوه من سومطرة والحبشة والبرازيل، بعد أن أحرقونا فصار لنا لون زنجي واحد، حتى لا يفرقنا أحد. ألم نكن نحن إحدى أدواتهم في الطريق إلى الحرية؟ فعندما سكبوا الشاي في ميناء بوسطن احتجاجًا على ضريبة الشاي الإنجليزية، أصبح أجدادنا من حبوب القهوة رفقاء آبائهم المؤسسين في طريقهم إلى الحرية، وصارت القهوة مشروب أمريكا المفضل.

أما المرة الأخرى التي ظهرت فيها في التلفاز، فكانت في

برنامج (ستين دقيقة) في تقريره عن تاريخ ستاربكس. إن دقّقتم في الطاحونة على يمين تيموثي، ستجدونني أنظر إلى تيموثي بدهشة وهو يتحدث بحماس أمام الكاميرا عن سعادته بعمله باريستا في ستاربكس. قبل يومين فقط، سمعته يتذمر من هذه المهنة غير الكافية لدفع رسوم الجامعة، قال إنّه يفكر في وظيفة ثانوية أخرى. ربّما كان لتيموثي أسباب أخرى لا أعرفها، لكنني لم أستطع أن أسمعها جيدًا، فقد كنت أقترب من قعر الطاحونة المزعج، في طريقي إلى أن أصبح كوب موكا فرابتشينو آخر.

يوليو2011 ، مونتريال.

الخيار الصعب لمبرمج حاسوب هوكنق

«إن المهمة الأعظم لكل المهتمين بصناعة الذكاء الاصطناعي، هي اختراع آلات قادرة على الفخر بنا».

أحد المنظرين لصناعة الذكاء الاصطناعي.

لعشرين سنة خلت وستيفن هوكنق عالم الفيزياء الكونية، المحبوس في قفص من جسم عليل كبّله بالصمت، يقدم نظرياته الكونية من خلال حاسوب ناطق. وبقدر ما كان جسده يهزل ويضمر، كانت قامته في العشرين سنة الماضية تطول، وإنتاجه العلمي ينمو، فقدم الكثير من الكتب التي أثرت في الوعي البشري المعاصر عن الكون، وعن تاريخه وثقوبه السوداء.

يكفي أن نقرأ (الكون في قشرة جوز) أو نشاهد سلسلة (تاريخ مختزل للزمن)، لنعرف حجم تأثيره الذي كان يمر عبر نافذة وحيدة: هي حاسوبه الناطق. بعد أن خذله جسده المنهك بمرض الضمور العصبي.

ولأنه عميد كلية الرياضيات في جامعة كامبردج، كان بإمكانه الوصول إلى حاسوب ناطق متجاوز لزمنه، يعتمد على لوغريثمات معقدة -ولكن غير مجربة- تداخلت فيها برامج الطباعة مع برامج التصحيح والتكهن اللغوي المستمدة من علم رضيع هو علم اللغويات الحاسوبية.

لم يستطع أنتوني مبرمج الحاسوب الذي أتى لصيانة روتينية، أن يكتشف أين ومتى بدأ الخلل، وإن كان فيروسًا مفتعلًا أم مجرد

شذوذٍ غير مقصود. لكنّ ما يعرفه هو أن ستيفن هوكنق، ولفترة لا تبدو قصيرة، لم يعد قادرًا على السيطرة على مضمون ما ينطقه الحاسوب ويكتبه.

أيعقل أن يكون منتج ستيفن هوكنق، الذي كان غزيرًا استثنائيًا في السنوات الأخيرة، محطّ احتفاءٍ بين الأوساط العلمية، وبالغ التأثير في الثقافة الشعبية، مجرد منتج جانبي للوغريثمات حاسوبية تاهت عن مسارها؟!

لا ينسى أنتوني مقولة هوكنق: *لكلّ مادة في الكون مضاد للمادة، والتقاؤهما يؤدي إلى انفجار نووي ضخم. إذا كنت في أول الشارع ورأيت مضادك في آخره فلا تذهب إليه، وإن مد يده ليصافحك فلا تصافحه، لأنّ ذلك سيكون النهاية الحتمية لكليكما*. هل لهذا الخيال الإبداعي العلمي، الذي جعل أنتوني يحرص على شرف لقاء الرجل وصيانة حاسوبه، أن يكون محض معادلات رقمية مجردة من أي وعي وإحساس؟ إن كانت كذلك، فلم انطبعت في ذاكرة أنتوني، وذاكرة الكثيرين ممن شاهدوا الوثائقي (تاريخ مختزل للزمن) أن هوكنق كان يحاول الابتسام في نهاية تلك الجملة الظريفة؟ ربما كان يبتسم من قدرة حاسوبه على إدهاشه من حيث لا يتوقع! وربما كانت ابتسامة العاجز عن مجاراة تلميذه!

ما الذي جعل هوكنق لا يبالي بمجاراة حاسوبه له، وتمرير (حقائق معرفية) لم يشارك في صنعها؟ هل أدمن هوكنق كل هذا المجد العلمي؟ هل خشي أن يفقد مصداقيته العلمية فتزول حظوظه في نوبل؟ أو يتراجع المئة فيزيائي الذين نصبوه

الفيزيائي الأكثر تأثيرًا في النصف الأخير من القرن العشرين؟ أو لعله أصيب بعيٍّ علمي وخشي ألّا يعود قادرًا على المشاركة في صياغة الوعي الكوني المعاصر، حتى ولو من خلال حاسوب يكتسب شرعيته العلمية من كونه حاسوب هوكنق. ولعلّ الرجل أصيب بالخرف منذ زمن ولم يعد يستوعب ما يقوله حاسوبه بالنيابة عنه.

يرى أنتوني أن إيمان هوكنق المطلق بالحقيقة العلمية، جعله يتغاضى عن كونها أتت من حاسوب لا من بشري، ما دامت تمتلك برهانًا رياضيًا لا يستطيع دحضه، وتلقى قبولًا معرفيًا من نظرائه العلماء. فهذا يعني أنه كان عليه ترك مهمة التخيل والتجارب العقلية والاصطلاح العلمي ذي الصبغة الأدبية للحاسوب، وهي مهمة تبدو بشرية لا تليق بآلة.

يعلم أنتوني من خلال دراسته مقررات الفيزياء النظرية في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا، وقراءاته في المعرفة، أن هذا الجانب تحديدًا يجعل الحقيقة المعرفية إبداعًا بشريًا حقيقيًا فردانيًا، يميز عالمًا عن الآخر، كل العلماء وحتى أصغر طلاب الجامعات، يستطيعون محاكاة تجارب بعضهم والتحقق من برهانها الرياضي، الفرق في الخيال والتفسير والتسمية الأدبية. كلما واجهت العلماء حقيقة معرفية تتجاوز حواسهم البشرية لجؤوا إلى الحدس لمقاربتها، وهكذا تصور كريك وواطسون بنية الحمض النووي في صورة سلم حلزوني، وربما لو كانت المكتشفة امرأة لتصورتها في صورة جديلة، ولو أن آينشتاين أتى من مدينة غير زيورخ الملأى بالدراجات، لكانت تجاربه العقلية التي قادته

إلى النظرية النسبية، لا تبنى على دراجة يقودها بسرعة الضوء بينما يطلق من مسدس قذيفة ضوئية، تمامًا كما رأى هوكنق مضاد المادة، كهوكنق آخر مضاد لا يجرؤ على مصافحته، أو كما تخيلها له حاسوبه في صورة مرعبة من التماهي بين الآلة ووعي صاحبها.

يا للرعب! إن كانت الآلة تحلم نيابة عن البشر، فتقدم لهم الوعي المعرفي، وربما تداعب مخيلتهم وتوقهم وتصورهم للوجود، كل الهدف من برامج المحاكاة التي صنعها علماء الحاسوب مع علماء الفيزياء الكونية لمحاكاة بداية الكون، هو إلقاء عبء المهمة الرياضية الرتيبة الطويلة على ظهر بغل ألغوريثمي، وترك مهمة تخيل الانفجار العظيم، وإعطائه اسمه -كيف للحاسوب أن يكون معنيًا بمفهوم العظمة- ونهاية تمدد المادة الكونية وانكماشها على ذاتها، للإنسان.

المشكلة أننا نحن البشر لا نقيم وزنًا كما للغة في تواصلنا مع بعضنا، ربما لذلك لم يَرْتَب أحد من حول هوكنق باستبداد حاسوبه بكل ما ينطق ويكتب، فعجز هوكنق حتى عن تعابير الوجه، يجعل طرق التواصل مع الآخرين أكثر بدائية وغريزية، كرفض الأكل والنزق والعصيان (هل لأجل ذلك ألمّ بحياته الشخصية طلاقان في العقدين الأخيرين، أحدهما من زوجته الأولى التي تزوجته رغم توقعات الأطباء بوفاته بعد ثلاث سنوات؟).

لقد شعر أنتوني بالفخر حينما راودته تلك الأفكار، إنه الوحيد الذي اكتشف هذه الحقيقة -باستثناء هوكنق ربما، وربما

حاسوبه- لقد بدا خياره أبسط مما توقع، خيار الصمت بفخرٍ يشبه فخر من اخترع آلة تقوم بما يعجز عنه.

يونيو2011 ، مونتريال.

الصورة بعين فوهة دبّابة

أنا السيد لي، وهو بالمناسبة ليس اسمي الحقيقي، كل الأسماء حيث كنت أعيش لم تكن تعني شيئًا قبل الخيار الذي اخترته ذات صباح. لم يكن مهمًا إن كنت السيد لي أو السيد وانغ أو السيد فونغ، كل ما كان مهمًا في جمهورية الصين الشعبية، قبل ذاك الصباح الكئيب غير المناسب للتسوق، هو أن تكون مستعدًا في أيّ لحظة لأن تكون جزءًا من تشكيل بشري ضخم يرفع كتابًا أحمر، وأن تؤدي دورك المرسوم لك بعناية منذ مولدك في تمجيد الجمهورية وحكمة السيد ماو. أمّا اسمك فلا معنى له سوى لدى أهلك وأصدقائك، ولا يصبح مهمًا إلا إذا تمردت على الدور الذي اختارته لك الجمهورية، تمامًا كما فعلت!

الآن يمكنني ملاحظة أن صباح الخامس من يونيو عام1989 هو صباح غير جيد للتسوق، لكنّني لم أتوقّع، إذ كنت أحمل أكياس الخضار ومستلزمات النظافة عائدًا إلى المنزل، أن أجد رتلًا من الدبابات يسير بكل وقاحة في مدينتي كأنه استعراض عسكري احتفالي، لا يأبه بالبؤس الذي حل بالمدينة، ربما ظنوا أن بإمكانهم ممارسة البلاهة الاحتفالية التي لا تنتهي في بكين، حيث تختلط الاستعراضات العسكرية بالتجمهرات البشرية المفتعلة والحمراء. لا يمكنني أن أتحمل تلك البلادة بعد أن رأيت إصرار الجمهورية الحمراء على صبغ الشوارع بلونها بقوة الرصاص، وصناعة التجمعات البشرية حتى لو كانت جثثًا متفحمة من مدافع النار، لا يمكنني قبول ذلك في ساحة (بوابة الجنة)

التي رأيت الجحيم مشتعلًا فيها من نافذة مسكني ليلة أمس، ووصلني صراخ الجرحى فيها عبر هواء بكين المخلوط برائحة البارود والشواء البشري. لا أستطيع التصنّع أكثر من ذلك؛ العودة إلى منزلي محملًا بأكياس المشتريات، ومشاهدة طابور الدبابات تسير دون مبالاة أمامي. سأقطع عليهم الطريق، أقف أمامهم مسلّحًا بأكياس الخضروات، وألوّح لهم بها في الهواء: اغربوا عن مدينتي، أو اعبروا فوقي!

***

أنا الرقيب لي، وهو بالمناسبة ليس اسمي الحقيقي. حينما تصبح جنديًا ينبغي أن تنسى اسمك وتتحول إلى رقم في كتيبة، تترك هواياتك وتكتسب هوايات جديدة كقيادة الدبابات، تنسى رائحة حقول الأرز وتعتاد رائحة البارود. تتجاوز حساء النودلز الذي تجيد أمك طبخه، وتتعلم أكل اللحم المعلب، أهم ما في الجيش أن تعلم ماذا تحمي ومن هم أعداؤك. نحن جنود الجمهورية وحماة تعاليم ماو، أعداؤنا هم الإمبرياليون ووحوش الرأسمالية، ويومًا ما سألتقي بهم وجهًا لوجه، أكاد أتخيل وجوههم: يابانيون بوجوه طويلة وضحكات فاجرة، أو أمريكيون بأعين واسعة وخضراء كأعين الشيطان، وحينها لن أتورّع عن تفريغ قذائف دبابتي في وجوههم، والمرور بجنازيرها فوق أجسادهم، لكني لا أفهم لماذا عليّ قبلًا أن أسير بجنازير دبابتي على من يشبه أصدقائي، أهلي -بل يشبهني- لكي أثبت أنّني مستعد لحماية الجمهورية من الإمبريالية؟

بدا لي الأمر ممكننًا بالأمس، كانت الأوامر تأتي بإطلاق النار

على كل من يبقى في ساحة (بوابة الجنة) وتمشيطها بالدبابات، كان الظلام طاغيًا إلا من بعض نيران مشتعلة هنا وهناك، وكان بإمكاني تخيل كل من يبقى في الساحة يابانيًا أو أمريكيًا يحمل سلاحًا خفيًا سيقتلني به إن لم أقتله. أمّا اليوم، فلا أستطيع إذ أرى هذا الشاب الذي يشبهني، وأرى أعينه من منظار الدبابة ترمقني باشمئزاز، وأكتشف أنه يتكلم بلغة مفهومة موبِّخة ليست كلغة الغرباء، أن أسير فوقه بجنازير دبابتي، خصوصًا في هذا الصباح الجميل.

«أرجوك ابتعد عن طريقي، ليتك كنت مسلحًا بأكثر من أكياس الخضروات وأدوات التنظيف».

***

أنا لست مجرد دبابة عادية، وعلى الرغم من أن اسمي مجرد رقم، لكنّني فخر جيش التحرير الشعبي، واسمي أهم من أسماء الجنود الذين يقودونني في جيش الجمهورية. أنا الطراز التاسع والخمسون. وعلى الرغم من أنني من نسل الدبابات السوفيتية، فإنني ولدت في الصين الشعبية، وخضت من أجلها معارك في فيتنام أمام الدبابات الأمريكية. أنا وفية لجمهورية الصين الشعبية، وموالية لجيش التحرير، ولم أمانع في توجيه مدفعي في الحرب الصينية السوفيتية تجاه أبناء عمومتي. لا أدري لماذا بعد كل هذا التاريخ في خدمتهم، يقزِّمون دوري وأنا أوشك على التقاعد في هذه المهام المهينة. لماذا يعتقدون أن مدفعي المضاد للطائرات هو سلاح مناسب لقصف مجموعة من الطلاب في شوارع بكين، أو أن جنازيري التي اجتازت أدغال فيتنام دون تردد،

مناسبة للسير على جسد رجل وحيد محمل بأكياس الخضروات.

***

أنا الرجل ذو الدراجة، أنا واحد من سائقي الدراجات التسعة ملايين في بكين. لا يمكنك أن تمارس شيئًا في الصين دون أن تكون جزءًا من إحصائية مليونية فيها، وقبل الموقف الذي اتخذته في الصباح الذي عقب مجزرة ساحة (بوابة الجنة) كنت مجرد سائق دراجة آخر في بكين، لكنّني استطعت التفرّد بالموقف الذي اتخذته مع الثائر المجهول، الرجل الذي أوقف رتلًا من الدبابات بكيس طماطم!

نتخذ أحيانًا خيارًا في لحظة معينة نظن أنه لا يعني سوانا، فمع أن الكثيرين لا يعرفونني، إلا أنهم لا يمانعون في تناول دوافعي التي جعلتني أقنع رجل الدبابة -ربما احتاج الأمر إلى أكثر من مجرد الإقناع- بالابتعاد عن طريق الدبابة. البعض يقول إنّني أحمل من الشفقة في قلبي ما دفعني إلى تجنيب الثائر المجهول مصير الدهس، البعض الآخر يقول إنّني كنت أملك من الحرص في قلبي ما دفعني إلى تجنيب سائق الدبابة عار السير فوق رجل أعزل، والبعض يقول إنّني كنت أحاول منع الصينيين من قتل بعضهم بقدر ما أستطيع، والبعض الآخر أيضًا يقول إنّني مجرد رجل من رجال البوليس السري. لكن هذا لا ينفي كل تلك الدوافع النبيلة.

ما يحدّدنا أحيانًا ليس الخيارات التي اخترناها، بل الخيارات التي لم نخترها. أتساءل الآن، بعد عشرين سنة من ذلك الصباح الجميل الكئيب في آن، ماذا كان سيحدث لو تركت الثائر المجهول

يقف في وجه الدبابة؟ من سأكون لو لم أقنعه -بالقوة- بالابتعاد عن طريقها؟ كيف كانت الصين لتكون لو أن كل شخص فيها اختار الوقوف في وجه مدفع دبابة؟ وكل جندي فيها اختار الامتناع عن الضغط على الزناد؟

***

أنا بَكَرَةُ فيلم، ولكم أن تتساءلوا كيف لبكرة فيلم أن تحدثكم مباشرة، إنّه سؤال مشروع. لكن، عليكم أن تخبروني أولًا ما إن كنتم ستصدقون أن رجلًا واحدًا استطاع أن يوقف رتلًا من الدبابات بجسده، لو لم أسجّل لكم تلك اللحظة الخالدة؟ الأمر متعلق بقابليتكم لخلق الأساطير وتصديقها، فكّروا كيف سيتخيل الصينيون تلك اللحظة لو تناقلتها الألسن بدلًا من أن تسجلها بكرة فيلم، سيقال إنّ معلّم الكونغ فو الأعظم في تاريخ الصين، استطاع إيقاف جيشٍ من الدبابات بإصبعين، سيقال إنّ راهبًا بوذيًا استغرق في التأمل واستطاع بقوة العقل خلق جدار خفي سجن خلفه الدبابات. وربما يقال إنّ التنين الحامي لبكين أوقف الدبابات القاذفة للنار بزفرة من لهب. تلك الخرافات التي كنتم ستصدقونها وربما تضيفونها إلى كتب التاريخ، فقط لتغطّوا ضعف إرادتكم، أكثر أسطورية من بكرة فيلم تتكلم.

أعتقد أن عليكم أن تشكروني؛ لقد تحمّلت الكثير من أجلكم، لقد اختبأت في حمام في فندق بكين، واستطعت تجنب مصير الأفلام الأخرى التي صودرت من مصوري ودمّرت. لقد هُرِّبتُ عبر المطارات لأصل إليكم، وفوق ذلك لا أزال قادرًا على إعادة صنع تلك اللحظة حتى هذا اليوم. كل ما تبقى فقط، أن تتساءلوا

إن كنتم لا تزالون قادرين على تصديق أن رجلًا واحدًا قادرٌ على إيقاف جيش من الدبابات؟

يوليو2012 ، مونتريال.

رجل الدّبابة، جيف ويدنر.

Tank Man, By Jeff Widener.

عن أحلام تراود كاسترو في خريفه

منذ أن تمكن منه المرض، يقضي ثائر كوبا الكهل يومه في مطالعة الصحف، كتابة مقاله الأسبوعي وقراءة التاريخ. يستطيع الآن أن يتجول في منزله طوال الوقت ببيجامة النوم وليس في حاجة إلى ارتداء البدلة العسكرية كلما خرج، بل يكتفي بلبس الكاكي، وفي أحيان -لا تليق بماضيه في الصراع مع الإمبريالية الغربية- يرتدي معطفًا وربطة عنق. إنه سعيد جدًا لأنه ليس في حاجة إلى إشعال سيجار كوبي كلما رآه الناس أو اقتربت منه كاميرا لتصوّره. يستطيع الآن استخدام المرض ذريعة للتملص من السيجار، الذي لم يرق له يومًا، لكنه لم يتحمّل أن يكون أقل رومانسية في هيئته وطقوسه من بقية ثوار أمريكا اللاتينية الذين يتلذذون بسيجارهم الوطني، وتحديدًا رفيق بندقيته شي جيفارا. ولأنه أفلت من مئة وثمانية وثلاثين محاولة اغتيال، ووقّع على مئتين وسبعة وثلاثين أمر إعدام بحق خصومه، يعلم الكهل الذي أدار كوبا أربعين عامًا، وحوّلها إلى جار مزعج للولايات المتحدة يصعب التخلص منه، أن خصومه لن يجدوا في أنفسهم ندمًا إن تخلصوا من عجوز مريض لم يعد يقوى على الحكم.

ولذلك فإن صورة الحصان الفحل (El Cabello) التي روّجها بين الكوبيين لا بدّ أن تستمر، كي لا يجرؤ أحدهم على مراجعة تاريخه، ومساءلة الحيز الذي زعمه لنفسه في كوبا والعالم، وبدلًا من أن يمارس هوايته الجديدة الوثيرة: (الاستغراق في أحلام

عن طرائق خالدة للموت)؛ يضطر مرتين في الشهر إلى لقاء أخيه راؤول، حتى يظل مطلعًا على أسرار الحكم وأخطاره. إن رجلًا قاد حرب غوريلات غير متكافئة ضد باتيستا، وصدّ عملية خليج الخنازير المدعومة بالسي آي إيه، وجعل دولة مزارع قصب السكر والتبغ البسيطة منصة لأسلحة نووية عالية التقنية تهدد القوى العظمى، لن يقبل أن يخرج من الحكم بطريقة مخزية أو حتى متواضعة، وهكذا لم يغادر الحكم عجزًا إلا لأخيه، بارتياب من يغادر طاولة قمار خادعًا كل جلسائه، ومتلفتًا بحذر من توشك خدعته أن تتكشف. ممارسًا دور الأب الروحي للأمة الكوبية خارج الحكم، ومُطلًا على طاولة القمار من زاوية خفية، وهو أيضًا لن يقبل أن يغادر الحياة بطريقة هادئة متواضعة، كالبسطاء على فراش المرض، ولا حتّى بطريقة غادرة غامضة كالسم، ولو كان مدسوسًا بأيادي القوى العظمى الإمبريالية!

لا بد أن يكون موته صاخبًا ومسرحيًا، لا تستطيع أن تنام عنه عين التاريخ، ويُفضّل أن تكون له الكلمة الأخيرة قبل أن يموت. حتمًا لا يريدها أن تكون كلمة بأداء قيصري يعكس عجز وسذاجة: «حتى أنت يا بروتوس!» ولا يريدها موتة موسيلينية ينكشف فيها سحره، فتصلبه العامة التي خدعها، ويبصق على وجهه الأطفال، ولا يريدها موتة حقيرة كموتة سلطان عربي قرأ عنه ذات مرة؛ بقباقب الجواري في الحمام.

- هل تخطر على بالك طريقة لائقة لموتي؟

-كنت أعلم أنك سارح عن حديثنا حول الميزانية، لكنني لم أتوقّع أن تكون مشغول البال بالانتحار؟

- لا تكن ساذجًا يا راؤول، سألتك عن طريقة لائقة لموتي ولم أسألك عن طريقة للانتحار. لو أردت الانتحار ما شاورتك.

- لا أعلم ما قيمة الحديث عن طريقة لائقة للموت، إن كنا في نهاية الأمر لا نعلم كيف ومتى سنموت، ولا نضمن حتى نجاح الطريقة التي نحاول الانتحار بها، عمومًا إذا أردت رأيي، فأظنّني أفضّل طريقة مبهمة وغير مؤلمة للموت، أن يأتي أحدهم ليوقظني ذات صباح من النوم، فيستغرق وقتًا طويلًا ليكتشف أنني لست نائمًا!

- حسنًا، ولكن نحن الذين اخترنا أن نعيش على حافة الخطر وإمساك دفّة التاريخ، نملك الكثير في صناعة نهاياتنا. أقصد أن نهاية هتلر -مثلًا- لائقة تمامًا بالطريقة التي يتعامل بها من خسر معركة اكتشف فيها عجز تفوق عرقه وشخصه على حسم الأمور لصالحه. الحقيقة، إنني أتمنى طريقة للموت تليق بكل ما قمت به في حياتي من ثورة ومقاومة للإمبريالية ووضع كوبا في الخارطة العالمية. أتمنى نهاية تمثل ذروة كل هذا، نهاية تشبه نهاية الرفيق جيفارا، تنتصر فيها مثاليته وروحه على خصومه. حتى تصبح الصورة التي أخذت له بعد موته، أيقونة لكل ما تبناه من مواقف وأفكار.

- حسنًا، دعني أصارحك بشيء لم أحدثك به يومًا. لطالما كنت مهووسًا بالطريقة التي يراك الناس بها، في صورك الثورية وخطاباتك، أستشفّ شيئًا من الغيرة والتنافس بينك وبين جيفارا.

لقد كنت حريصًا دائمًا على الطقوس التي تحوم حول خطاباتك أكثر من حرصك على خطاباتك ذاتها. مع أن اللحظات العظيمة تلك لا يمكن التخطيط لها، كنت تبذل مجهودًا ذهنيًا هائلًا في تنسيقها، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلّت المعجزة تتحقق من حيث لا تتوقع. أتذكر خطابك الأول بعد نجاح الثورة، لقد أصررت -ووافقك الثوار- على إطلاق الحمامات البيضاء من أقفاصها في أثناء إلقاء الخطاب، حتى يستبشر الكوبييّون بهذا العهد الجديد، ومع أن تلك اللحظة كانت جميلة كما توقعنا، إلّا أنه لم يدر في خلد أحد أننا بصدد لحظة خالدة، كأن تحط حمامة بيضاء على كتفك ساعة كاملة في أثناء الخطاب دون أن تجفل.

- كان ذاك يومًا جميلًا.

قال كاسترو لراؤول وهو يومئ مبتسمًا لصورة معلقة في مكتبه لذاك الخطاب.

- فعلًا، ولا أدري لماذا تشغل بالك بكل هذا التنافس الصبياني مع جيفارا حتى في موته.

- الحقّ يقال، كان جيفارا قادرًا بعفويته على تسجيل اللحظات الكارزماتية حتى في صورته عند موته. كانت أعين الناس والكاميرات تلتقط له مشاهد خالدة، في المقابل احتجتُ إلى كثير من الأداء لمنافسته، وهو شيء مشروع تعلمته حتى في أيام دراستي في كلية الحقوق. ليس مهمًا أن تملك أقوى الأدلة إن كنت مترافعًا سيئًا، حتى وإن كنت في صف القضية العادلة، يكفي أن أذكّرك أن صورة جيفارا التي أصبحت سلعة استهلاكية معولمة على قمصان الطلاب اليساريين والمقاومين للعولمة في

أمريكا وأوروبا، مجتزأة من صور التقطها لنا مصوري الشخصي، هذا كاف لتدرك أنّها منافسة غير سهلة.

- لكن دعني أذكّرك أنك خضت ثورة عظيمة ضدّ حكومة متعاونة مع الإمبريالية وانتصرت، واستطعت التصدي للقوى العظمى على الرغم من محدودية إمكانياتك، وصمدت، وتمكنت من حكم كوبا أكثر من أربعين سنة ووضعها على خارطة العالم، ألا يحق لك أن تأنس بهذا المجد بدلًا من هذه المرارة التي أجدها في حديثك! أقصد أنك حققت بواقعيتك في حياته ما لم يحققه (شِي) بمثاليته قبل موته.

- لم أقل إنّني لم أجد المتعة في كل ذلك، لكن، عليك أن تسأل نفسك -على الرغم من كل ما حققته- أيّهما سيتذكره التاريخ بعد مئتي سنة، أنا أم جيفارا؟ إنه الخلود يا رفيق، الثمرة الأهم لخياراتنا حينما نقترب من الموت. دعني أحدثك بشيء دار في خلدي وأنا أقف أمام تمثال إبراهام لينكولن حينما زرت أمريكا: في نظري أن الرئيس الأعظم في إنجازاته لأمريكا هو روزفلت. لقد استطاع إنقاذ الرأسمالية الفانية من موت محقق وأعاد الاعتزاز للأمريكيين بأمّتهم، لقد هزم النازية وأنقذ الإمبراطورية البريطانية من الفناء، وفوق ذلك كله، فاز بأربع دورات انتخابية في بلاد تمل من الرؤساء بسرعة، لقد فعل كل ذلك وهو كسيح لا يستطيع المشي ولا يجيد حتى استخدام السلاح كأي جندي بسيط. في المقابل، فإن لنكولن الذي قسَّم الأمة الأمريكية بفوزه بالانتخابات، وأعلن الحرب الأهلية في قضية كان من الممكن حلها في الكونغرس، حقق الخلود في الذاكرة

الأمريكية لأنه اغتيل اغتيالًا دراميًا، حينما وجّه ممثل -متعاطف مع الجنوب- مسدسه من فوق خشبة المسرح إلى منصة لنكولن وأطلق الرصاص. وهكذا سيتذكر الأمريكان أن لنكولن اغتيل على مسرح التاريخ في سبيل قضية تحرير العبيد، في حين سينسون إنجازات روزفلت الذي مات بسكتة دماغية وهو يتموضع لبورتريه لم يكتمل! إن الطريقة التي يموت بها العظماء قد تكون أهم من أفعالهم. حسنًا، إن خصمي اللدود جون كيندي على سبيل المثال، الذي عجز عن تحقيق النصر على كوبا في عملية خليج الخنازير أو إنهاء الحرب في فيتنام، سيُحفر اسمه بطلًا في التاريخ الأمريكي، لأن اغتياله أوحى للناس أنه كان مقبلًا على شيء عظيم، وإن كانوا لا يدركون ما هو هذا الشيء.

- لا أدري، لا أشعر بالاطمئنان لما تقوله، أقصد أنني لا أريد التفكير كثيرًا في كيف سنموت، وتحديدًا لا أحب أن أتخيل نفسي- بل كوبا- من بعدك. أعتقد أن حكمتك مهمة للأمة الكوبية، ولا أريدك أن تطلب مني التخلي عن حمايتك من محاولات الاغتيال، على الرغم من أنني متأكد من أن قدرتك على البقاء ليست في حاجة إلى دعم.

ضحك فيدل وهو يشير إلى درج في مكتبه يعلمان أنه لم يخل قطّ من مسدس:

-كل ما أحتاج إليه من حماية موجود في ذاك الدرج.

لم يكاشف كاسترو أحدًا من قبل بدواخله وضعفه بهذه الطريقة، ولا حتى إخوته أو رفقاؤه، وظل بقية يومه -ساعات بعد انتهاء اللقاء- يوبّخ نفسه على ذلك، يبدو أن الشيخوخة بدأت

تتخر قدرته على الحفاظ على غطاء من السحر حوله، بعد أن أصابت جزءًا لا بأس به من ذاكرته، لم يصارح كاسترو أخيه بالسبب الحقيقي لاستعجاله الموت بطريقة خالدة. إنه يخشى مواجهة الخرف الذي هزم المرأة الحديدية ثاتشر والرئيس القوي ريغان في نهاية عمرهما. يحاول بكل ما تبقى لديه من قدرات عقلية توشك أن تذبل، أن يحلم ويخطط لطريقة خالدة للموت، حتى لو استغرقه ذلك الجهد والوقت ذاتهما اللذين يتطلبهما ترويض حمامة بيضاء للوقوف على الكتف مدّة طويلة دون وجل، ذات لحظة خالدة.

ديسمبر2012 ، مونتريال.

رافاييل

هناك شيئان تحتاج إلى معرفتهما عن كل تمثال أو منحوتة.

- اسم التّمثال واسم النحّات؟!

- كلّا، بل المادة التي صنع منها التمثال ونوع الوسخ العالق بها، هاتان المعلومتان مهمّتان لاختيار المنظّف المناسب حتى لا تؤذي التمثال ولا يضيع وقتك في التنظيف. مع العلم أنّ هناك ثلاثة أنواع من الأوساخ: براز الحمام وبقع الطعام والبيرة، وهذه عادة يتسبب بها السياح الذين يأكلون دون مبالاة بجوار التماثيل، والبقع الغريبة -وهي أصعبها وأكثرها- مثل شحم السيارات أو الفضلات البشرية.

- وما الذي يوصل شحم السيارات أو الفضلات إلى التماثيل؟

- المشرّدون، هؤلاء القذرون لا يتورّعون عن ملامستها والعبث بجانبها، المهم أنهم يلطخونها بكل ما تحمله ملابسهم وأجسادهم القذرة.

كانت شفتا رافاييل تتكوران باشمئزاز غير واع، وهو يستمع إلى وصف عامل البلدية جوزيف. حاجبا جوزيف -في المقابل- كانا مقطّبين باحتقار، إنه لا يعلم لم كانت مسؤوليته من بدّ كل عمال البلدية، أن يرافق مراهقًا كثير الأسئلة والتأتأة لتعليمه أصول المهنة، ما زالت أمامه خمسة تماثيل لتنظيفها، وهذا المزعج يستفزه بحماسه! لماذا لا يختار أن يستمتع بإجازته الصيفية مع رفيقته كما يفعل كل الفتيان في عمره، حتمًا ليس لديه رفيقة! لعل وجهه المملوء بحب الشباب، ولغته الفرنسية

التي تحمل مزيجًا شاذًا من لكنة إيطالية وبرتغالية، جعلاه وحيدًا.

الحقيقة أن اشمئزاز رافاييل لا علاقة له بالمُشرّدين، بل بالطريقة التي اختار أن يصفهم بها جوزيف. من الواضح له أن جوزيف لا يحب عمله، ولا التماثيل والمنحوتات الموكّل بتنظيفها. خسارة! كيف يعمل مع هذه القطع الفنية من لا يدرك قيمتها. رافاييل، يدرك قيمتها، وإلا لما تطوع للعمل في تنظيفها في هذه الإجازة الصيفية، على الرغم ممّا قد يجلبه ذلك من سخرية أقرانه في الحي البرتغالي، إنه يأمل أن يضع هذه الخبرة على سيرته الذاتية لتسهّل قبوله في كلية الفنون في جامعة مكغيل أو كونكورديا. من يدري، ربما تكون تلك تذكرة خروجه من بؤس الحي البرتغالي! دائمًا ما أشعره الآخرون بأنه طارئ وغير مرحب به، ودائمًا ما شعر بأنه مختلف، لا يستطيع أن يفعل ما يتوقعه الآخرون منه، لم يساعده -كثيرًا- عيشه في الحي البرتغالي مع أبوين مهاجرين، استغرقهما الكثير من الوقت ليتعلّما اللغة الفرنسية؛ ليس من الفرنسيين مباشرة، بل من عملهما مع الطليان في حي إيطاليا الصغرى المجاور، إنه يعلم أنه ينتمي إلى شيء ما، ويملك شيئًا ما يجعله قادرًا على الانتماء إلى جماعة ما، ولكنه لا يعلم ماهيّة ذلك الشيء بعد، ولا يعلم ما هي تلك الجماعة حتى الآن. أمام البرتغاليين ليس برتغاليًا كفاية، وعند الطليان هو برتغالي لا يملك الروح الإيطالية، ومع الفرنسيين لا يجيد اللّكنة الفرنسية كفاية ليصبح فرانكفونيًا. ليس رياضيًا كفاية لينتمي إلى لاعبي الكرة أو الهوكي، ولا متفوقًا كفاية ليشارك فريق العلوم والرياضيات في مدرسته، ولا يجيد الحديث أو اللعب أو

الشغب مع أقرانه لينتمي إلى عالم المراهقين، ولا يملك النضج الكافي لينتمي إلى عالم الكبار. لكن، ربما تساعده هذه التجربة على أن يجد نفسه وما يحب، إنه يشعر بأنه قد يجد نفسه في عالم المنحوتات والرسم، فلطالما وجد نفسه جيدًا في الرسم والتشكيل بالصلصال، وقد حدّثه أحد مدرسي الفنون ذات يوم عن بعثته إلى إيطاليا لدراسة أعمال مايكل أنجلو ودافينشي، مذ ذاك اليوم والحلم بالحصول على بعثة إلى إيطاليا لا يغادره.

***

تبدو تماثيل مونتريال لا نهائية، لا يكاد يألف أحدها، حتى يفاجئه آخر. عجيب كيف غابت عنه كل هذه التماثيل على الرغم من أنه مونتريالي منذ الولادة، وكأنها تسللت إلى مدينته من مدينة أخرى ذات ليلة، أو طفت على سطحها من عالم سفلي حينما كان نائمًا. كل تمثال يُكلّف بتنظيفه، يلتقط له صورة بجواله، ثم يقرأ عن قصته وتاريخه لاحقًا.

لم يدرك رافاييل كيف من الممكن أن تمرّ -أكثر من مرة- بجانب منحوتة دون أن تلاحظها؛ إلا حينما كلف بتنظيف (قارئ الجازيت). من الصعب الغفلة عن تمثال العذراء وهي تفرد ذراعيها للمؤمنين بتواضع، كما أنه من الصعب تجاهل منحوتة الملكة فكتوريا وهي تغرس صولجانها في قاع عرشها بكبرياء، أما المرور بجانب رجل أصلع متكئ على حائط وهو يقرأ الجريدة، وبجانبه حقيبة سفر، فلا يثير الارتياب حتى لو كان من نحاس. إنّ حجم التفاصيل المدهشة والمتعبة في تنظيف هذه المنحوتة، جعلها قابلة للتصديق، فبينما كان رافاييل مستغرقًا في تنظيف

الكلمات والصور المنحوتة على جريدة قارئ الجازيت، اقترب منه رجل بلحية طويلة ومعطف ممزق، وقال:

- هل تريد مساعدة في حمل حقيبتك يا سيد؟

وما كاد رافاييل يكتشف أن المشرّد يخاطب المنحوتة ولا يخاطبه، حتى غادرهما غاضبًا:

- حسنًا، لا تكن بخيلًا هكذا، كل ما أردته المساعدة وليس المال!

هذا الحوار الغريب الذي جرى أمامه ظل عالقًا بذهنه، حتى وهو مشغول في تنظيف تمثال آخر لطالما أدهشه (البائس العظيم)، هذا التمثال، الذي يتطلب الصعود على سلم صغير لتنظيفه، هو لعملاق يجلس القرفصاء ويدفن رأسه بين ركبتيه. لم يستطع أن يتأمل تفاصيل المنحوتة وحكايتها دون أن يجد فيها شيئًا لا يذكره بحوار المشرّد مع قارئ الجازيت.

يبدو مشرّدو مونتريال كتماثيلها، لا نهائيين. لا يكاد يعبر بجانب أحدهم، حتى يمر آخر بجانبه، إنّه لمدهش أن تعيش في مدينة كل هذه السنين دون أن تلاحظ هذا العدد من المشرّدين. رافاييل، يشعر بأنه يألف عددًا لا بأس به من وجوه المونترياليين، لكن أحدًا من تلك الوجوه لا يشبه وجوه مشرّديها. وكأن للمدينة سكانًا موازين لسكّانها، سكان كتمثال العذراء يقتحمون وعيك، وسكان موازون كقارئ الجازيت بالكاد يستدعون انتباهك، تحتاج إلى إجازة صيفية كاملة من العناية بالتماثيل لتلاحظ كم فاتك من تماثيل مونتريال ومشرديها!

من أين يأتي المشرّدون؟ فكر رافاييل. متى وكيف يصبح

أحدهم مشرّدًا؟ لم يشاهد رافاييل طفلًا مشرّدًا في مونتريال، ولذا فمن الصعب عليه أن يتخيّل أنهم ولدوا مشرّدين، فما الذي رمى بهؤلاء على قارعة الطريق ليبدوا -هكذا- كفطر ينمو على أرصفة المدينة. وماذا حصل في حياتهم لكي يعيشوا على هوامش الدنيا؟ والسؤال الأهم: لماذا يكلّم المشرّدون تماثيل المدينة بأريحية؛ بينما لا يكلمون سكانها إلا اضطرارًا؟!

استغرقت الإجابة عن السؤال الأخير ملاحظة عدد لا بأس به من المشرّدين والتماثيل. كان أحد المشرّدين مداومًا على التّسول بالقرب من منحوتة (الرقة)، إنها منحوتة رخامية لطفل يقبّل يد أمه التي بدورها تقبل رأسه. كان على رافاييل -بين الفترة والأخرى- أن يزيل بقع الطعام التي تعلق بالمنحوتة من القُبَل التي يطبعها ذاك المشرّد على رأس الأم.

هناك امرأةٌ أيضًا تداوم على النوم على فخذي منحوتة لشاب وسيم يقرأ كتابًا على مقعد حديقة، فتترك شيئًا من فضلاتها أحيانًا، وفي ليالي الشتاء الباردة تلفّ وشاحها حول عنقه لتدفّئه. وثمة مشرّد ستيني، دائمًا ما يدخن ويثرثر مع رجل عجوز وابنته، ثم يطفئ أعقاب السجائر في جسديهما النحاسي.

***

أوشكت الإجازة الصيفية على الانتهاء ولم يكلف بتنظيف منحوتة مونتريال الشهيرة:

(The Illuminated Crowd/ الحشد المضيء). على الرغم من حماسته لهذه المهمة، عندما تركه جوزيف صباحًا قال:

- خذ وقتك، يا رافاييل، سأمر في نهاية اليوم لأعيدك إلى منزلك.

كان يبتسم بخبث.

بدت المهمة مرهقة أكثر مما توقع رافاييل.

كان ينظر إلى المنصة الضخمة التي تقلّ حشدًا مكوّنًا من خمسة وستين مجسمًا بشريًا.

بدأ بتلميع العبارة المنحوتة على قاعدة المنصة، حرفًا تلو الحرف:

«اجتمع الحشد أمام الضوء، النور الذي أضاءهم أتى من: نار، حدث، عقيدة، أو فضيلة. الضوء الساطع يخلق ظلالًا خلف الحشد، وكلما ذهبت إلى مؤخرة الحشد يتلاشى النور فيضطرب المزاج، يزداد الصخب، تدب الفوضى ويظهر العنف، كاشفًا الطبيعة الهشة للإنسان. دهشة اكتشاف: النور والأمل والانفعال والبهجة والتوتر والخوف والمرض والعنف والقتل والموت. بالأحرى، تيار المشاعر الإنسانية عبر الوجود!»

تأمَّل الأوساخ واللطخات المبعثرة على تفاصيل وجوه التماثيل وملامحها، والعوالق المختبئة في تثنيات أجسادها وملابسها، ثم أخذ نفسًا طويلًا وبدأ المسح على المجسمات البشرية واحدًا تلو الواحد:

بدأ بالرجل الذي يشير إلى الضوء وصاحبه، ثم الطفل الذي ينظر إلى أمه وهي تتأمل الضوء، فالفتاة التي ترتقي كتف أبيها لتنظر، الرجل العجوز الذي يستند إلى امرأته، والرجل المنطوي على نفسه بارتياب، والذي -قبل أن يغادره رافاييل إلى آخر الحشد حيث الهرج والأجساد الملقاة- همس له:

- هيه، رافاييل، ما رأيك؟ هل نذهب معهم إلى حيث يشيرون؟!

***

كلّما أتى الصيف ازدادت كآبة جوزيف، حيث تبدأ مهمته بتنظيف تماثيل مونتريال من تراكمات الأوساخ في شتائها الطويل، لتليق بسيّاحها. كلّما أتى الموسم السياحي ازدادت نقمة جوزيف على مجتمعه الذي لا يبالي بتكليف رجل يوشك على سن الخمسين بعمل لا يحبه ولا يليق بلياقته. لم يتخيل أن يقضي كل هذا العمر عامل نظافة. ولم يكن يحلم حينما كان طفلًا ومراهقًا بهذه المهنة. من -أصلًا- في مدينته حلم بهذه المهنة وهو صغير. تراوده فكرة التخلي عن كل دور أنيط به بدلًا من المبالاة بمجتمع لا يبالي به. ويتمنّى -مؤخرًا- لو أنه يستطيع العيش على هوامش الحياة بلا قلق، تمامًا كما بدا على وجه المشرّد الذي نهره قبل قليل، لأنه كان يربّت بيد متسخة على منحوتة (الملاك يكسر القيد)، ويواسيها بلكنة برتغالية إيطالية تبدو مألوفة، لكنه لا يعلم متى ضاعت في ذاكرته!

أبريل2013 ، مونتريال.

الحشد المضيء، رايموند ماسون.

The Illuminated Crowed, by Raymond Mason.

The Illuminated Crowd
1985

A crowd has gathered, facing a light, an illumination brought about by a fire, an event, an ideology – or an ideal. The strong light casts shadows, and as the light moves toward the back and diminishes, the mood degenerates; rowdiness, disorder and violence occur, showing the fragile nature of man. Illumination, hope, involvement, hilarity, irritation, fear, illness, violence, murder and death – the flow of man's emotion through spare.

ومضة في الركن المظلم من دماغ السيدة (أُو)

الساعة السادسة من صباح كل يوم، ولمدّة شهر، هي الموعد اليومي لاشتعال خلايا دماغ السيدة أُو. يبدأ ذلك بتربيتة مني على كتفها، فيشتعل فتيل من التفاعلات يضيء كل خلية من خلايا دماغها، ما عدا ذاك الركن القصيّ من الخلايا الذي يسجّل أسماء الوجوه والأماكن. ذاك الركن تحديدًا، يظلّ غارقًا في الظلام كحي مهمل ومعطوب، في وجه مدينة صاخبة متراقصة بأضواء النيون.

ربما تكون السيدة أُو مثابرة في حياتها السابقة، وربما تكون مَلُولَةً تتجنب الأشياء التي يصعب عليها تعلمها. لا يمكنني تحديد ذلك بدقة، ومن الصعب الوصول إلى خصالها في حياتها السابقة، فالطريق إلى معرفة ذلك تمر من خلال ذلك الركن المنطفئ في ذاكرتها، الذي أصبح متاهة مظلمة في دماغها منذ داهمه النزيف، كسيل اقتحم حيًّا مهمّشًا في مدينة طاردًا سكانه وبيوته وأضواءه، فلا يجرؤ أحد على اجتيازه منذ أن غرق في الظلام.

كل ما يمكنني قوله عن السيدة أو، هو أنّها لا تملّ من سؤالي كل يوم عن اسمي، وأنا لم أملّ من تذكيرها به وبعملي والمكان الذي هي فيه.

حسنًا، أعرف ما تفكرون فيه، ولذلك قلت «لم أمل» ولم أقل «لا أمل». مزعج جدًا أن يتظاهر أحدهم أمامك، بأنه الطبيب المثابر والمخلص الذي يصبر على أسئلة مرضاه صبرًا لا يطيقه أيوب. ما أنا متيقن منه: أنّني، ولثلاثين يومًا، لم أملّ من إجابة السيدة أو عمّن أكون، لكنها لم تستطع اختبار صبري في اليوم

الحادي والثلاثين، ولا أستطيع أن أكون متيقنًا تمامًا ممّا كنت سأفعله حينها، فاليوم الحادي والثلاثون هو اليوم الذي أصبت فيه بجلطة في الدماغ، تجعلني أقضي يومي في المستشفى ذاته الذي تبيت فيه السيدة أو، بدلًا من أن أوقظها في ميعادنا المعتاد.

أي ثقب أسود ابتلع تلك الوجوه والأسماء في ذاكرة السيدة أو؟ أي جحر أرنب سقطت فيه تلك الخلايا؟ هل تذكر السيدة أو أول مكان جدلت فيه أمها ضفائرها؟ هل تحفظ السيدة أو مكان أول رجل ثلج صنعته مع أبيها؟ أي عربة مثلّجات وهبتها تلك المتعة لأول مرة؟ وأي وجه من وجوه صديقاتها شاركها لحظة تلطخ الأنف والشفاه الضاحكة بالمثلّجات؟ في أي فصل مدرسي تلقت ثناءً من معلمتها على رسمها الجميل؛ فغرفة السيدة أو في المستشفى ملأى بالرّسومات الجميلة؟ وكيف كانت وجوه زملائها وهم يصفقون لها؟ في ظل أي شجرة تلقت قبلتها الأولى؟ وهل لا تزال الخلية التي تحفظ تلك القبلة حيَّة؟ أم جرفها النزيف كسيل اقتحم بيتًا في حي مهمش فجرف أثاثه، صور سكانه، ألعاب صبيانه، وتذكاراتهم؟

قد تتساءلون ما الذي حدث لي في اليوم الحادي والثلاثين وما بعده؟ سأتفهم انزعاجكم لأنني تحدثت عن واقعة كبيرة بطريقةٍ عابرة، هذه القصة معنية بالسّيدة أو، ولا أود أن أتطفل على قصتها. حسنًا، ربما لن تمانع السيدة أو لو تحدث شخص لا تتذكر اسمه عن نفسه قليلًا، في قصة قد تنسى أولها، فور أن تصل إلى آخرها.

كان يومًا من أيام رثاء النفس، اليوم الحادي والثلاثون، أقصد

أنه ليس من السهل تقبل فكرة أن جلطة دماغية تصيبك في هذا العمر، أنت بالذات، ستكون الأكثر حزنًا على النفس من معظم مرضاك. فأنت تستطيع أن تتخيل عددًا أكبر من الاحتمالات السيئة ممّا يستطيعون.

كانت فكرة حسنة، حينما لم تحدث تلك الاحتمالات السيئة وغادرت العناية المركزة، أن تمشي في أجنحة المستشفى لترى ما كان واردًا ألّا تراه بعد ذلك أبدًا. السيد (إم) في الغرفة المجاورة لك، يستعد للعودة إلى المنزل. كنت قد أجريت له عملية جراحية لمنع الجلطات الدماغية، سويعات قبل أن تصاب أنت بواحدة. السيد (إتش) يمشي لأول مرة منذ أن دخل المستشفى بمساعدة زوجته. السيدة (دي) تتعجب من رؤيتك بقميص المستشفى. كانت تتوقع أنك ستشارك في الجزء المتبقي من جراحتها غدًا، كما شاركت في الجزء الأول قبل أسبوع. أمّا السيّدة (أو) فلم تغادر سريرها قط طوال الشهر الذي عرفتها فيه، وليس واردًا في ذهنك أن تراها. وعلى الرغم من أن الدهشة وردت في خاطرك حينما رأيتها على مقعد متحرك، تدفعها فتاة شابة تشبه ملامحها، اخترت أن تلجم تعابير الدهشة على وجهك، كما يليق بغريب مرّ بغرباء.

- توقفي لحظة يا ابنتي... أنت! كيف حالك؟

كانت السيدة (أو) وابنتها تنظران نحوي في انتظار الإجابة.

- بحال جيدة!

- هل أنت على ما يرام؟

- نعم، أنا بخير، وأوشك أن أغادر المستشفى.

- أنا سعيدة لسماع ذلك. عمومًا، شكرًا على العناية التي قدمتها لي.

ثم أشارت لابنتها أن تدفعها.

أكملت طريقي إلى غرفتي، وقبل أن أستلقي على السرير دخلت ورائي الممرضة على عجل مستعجبة:

- هل تحتاج إلى مسكِّن؟ هل أصبت بالصّداع؟

- لا.

- هل أنت على ما يرام؟!

- أنا في أحسن حال.

- إذًا لماذا تبكي؟!

نظرت إلى المرآة المعلقة أمام سريري، كانت الدموع تسيل على خدي دونما وجع، كدموع صبي ربَّتت على كتفه يد حانية، وأعطته مصباحًا ليعود إلى حيه المهمل المعطوب، باحثًا عمّا لم يجرفه السيل من ألعابه وتذكاراته.

ديسمبر 2014، مستشفى مونتريال العصبي.

كيف يطهو مايكل السلمون؟

ما المانع في أن تطهو فيليه السلمون ثلاثين مرة في اليوم، إن كان المقابل أن تستطيع أن قول (لا) متى ما أردت؟

هكذا ينظر مايكل إلى حياته الجديدة.

لم يكن السلمون، ذو البنية الحمراء الدسمة، سمكه المفضل، بل البرنزينو؛ فلا مثيل لذوبان لحمه الأبيض الخفيف في الفم. ما أشهى أن تشطر السمكة إلى وجهين، وتعوّم كل وجه على رقاقة من زيت الزيتون الحار، ثم تنثر أوراق الريحان والزعتر المجفف، وشيئًا من قشر الليمون الأخضر إن تيسّر، وتقدمها بجانب الباستا بصلصة الصنوبر. لا متعة أجمل من أن تتشاطر تلك البهجة مع صديق، شخص عزيز، أو تبهر بها فتاة تروق لك، أو ربّما مع أمك، كما يتودد مايكل لأمه كل عيد أم، ثم يغيظها بقوله: ما رأيك بالبرنزينو؟

أمُّه اليونانية تلحُّ عليه أن يسميه (اللوب دي ماري) كما يليق بابن يوناني أصيل، إلا أنها تتجنب هذا الإلحاح في وجود والده الإيطالي، صاحب مطعم السمك. وعلى الرّغم من أن العائلة كلها -بشكل أو بآخر- تعمل في مطعم السمك الواقع على طريق شيربروك في مونتريال. إلّا أن أبا مايكل احتكر حق تسمية كل الأسماك على قائمة الطعام، فأصبحت بصمة المطعم إيطالية.

ثمة أشياء جديدة تكشفت لمايكل من وراء هوسه الحديث بالسلمون. لا يهاجر السلمون عبر البحر إلا مرة واحدة، حينما تقرّر الأسماك البالغة أنه قد آن لها أن تتوالد، وحينها تتدحرج

مع التيار حتى تصل إلى البحر، ثم تنثر بيوضها ونطفها قبل أن تفنى في مهجرها الجديد: المحيط. وتلك الرحلة، وإن ذكّرت مايكل بهجرة والديه من أوروبا إلى كندا، ليست مثار عجبه. بل كيف أن صغار السلمون التي تنشأ في ذلك المهجر، فلا تعرف غيره ولا تعرف حتى آباءها، تجد طريقها إلى منابع النهر ذاتها، كشعوب تتبع أسطورة أو نبوءة.

لم يكن من السهل على مايكل العمل والدراسة، وهي المغامرة التي قد تؤدي إلى فشله في الدراسة أو عجزه عن سداد أقساطها. يمكن القول إنّه كان يفضل أن يتفرغ لدراسة الأدب والكتابة الإبداعية في جامعة كنكورديا، على أن يقضي بعض المساءات ونهايات الأسبوع في تحضير البيتزا وحشي الساندوتشات في (القطارون الثلاثة). وكونه ابن طباخين، فلا أكثر إغاظة لجهده في المطبخ، من أنّ أحدًا لا يتذوق ما يصنعه، سوى المترنحون في شارع القديسة كاثرين، الذين أتوا من أجل قدح بيرة آخر، فداهمتهم نوبة جوع، لن يتذكروا بأي أكلة قاوموها. إلا أن ذلك كله أهون على مايكل، من أن يفعل ما يريده منه أبوه.

الطريقة الجديدة في طهو السلمون، راقت كثيرًا لصاحب (القطارون الثلاثة). ثمة منافع كثيرة لطهي السلمون بطريقة مايكل، على طهيها بكريمة الباشميل، كما كانت قبلًا على قائمة الطعام. أوّلها، أنها أوفر، ثانيها، أنها أقل دسمًا وامتلاءً فيبقى للزبون بعدها متسع لأقداح البيرة، وهكذا وجدت طريقته طريقها إلى قائمة الطعام حينما قرر أن يشاطر مايكل مديره سمكة

سلمون. لا بدّ أن يكون زيت الزيتون حارًا أولًا قبل أن تقرر تعويم فيليه السلمون عليه، وإلا فإنك لن تتلذّذ بذلك المزيج الجميل لوجهها المقرمش وباطنها الطري، كما أنك لن تتخلّص من دهنها الفائض. وعندما تقترب من الاستواء تريق عليها مسحة من الخل، ثم تنثر فوقها بعضًا من الزعتر والكبر، وتبشر عليها ما تسنّى من قشر البرتقال، ثم تقدمها بجانب الرز والفاصولياء البيضاء. لا ألذّ من الأثر الذي تتركه سمكة السلمون في فمك ونفسك حينما تنتهي منها، وهكذا وجد مايكل نفسه يطهو ما بين عشرين إلى ثلاثين سمكة في نهاية الأسبوع الواحدة.

ليس الطّعم وحده ما يجعل السلمون سمكة مايكل المفضلة، بل حكايته التي تثير دهشته ومخيلته. كل الأسماك تتصاع للسباحة مع تيار النهر، وحدها أسماك السلمون اليافعة تختار عصيان التيار ومقاومة فجاجته، على أمل الوصول إلى منابع النهر الوادعة في أعالي الجبال. تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر، التي في سبيلها قد ترى أسماك السلمون تقفز من مجرى للنهر إلى الذي يعلوه، وهي تحاول تجنب صفعات الدب الأمريكي الجائع، التي يهوي بها على كل من يعصي النهر كحارس على تقاليد التيار.

ثمة تبعات لأن تكون ابنًا لرجل إيطالي، خصوصًا في المهجر، أبسطها أن يكون لك حظ في الطبخ، واللباقة مع النساء، أو هكذا يتصور زملاء مايكل الكيوبكيون. لكن الأمر أكبر من ذلك. أن تكون ابنًا لرجل إيطالي يعني أن لك حدودًا في ما هو عمل مقبول أو غير مقبول، في لون بشرة خطيبتك، في

القلادات التي تحيط عنقك، وفي الرموز السياسية التي تضيفها إلى هندامك، أو تختار ألّا تضيفها، من الجيد -مثلًا- أن تعمل في مطعم أبيك، وإن أردت وجاهة ومالًا أكثر؛ فمن الجيد جدًا أن تعمل مع ابن العم طوني، ولكن لا تكدّر أباك بتفاصيل وطبيعة عملك مع طوني، أمّا إن اخترت أن تعمل بعيدًا عن إرث العائلة، فحري بك أن تتعلم حرفة ذات دخل ثابت وسمعة، كالطب أو الهندسة. كل تلك الخيارات كانت تضمن لمايكل رضا العائلة أو تضمن له دعم أبيه المالي لتعليمه، وتجنبه هذا التمزّق بين دراسة الأدب والوظيفة المؤقتة في (القطارون الثلاثة)، إلا أن مايكل يفضل أن يكون سمكة سلمون عظيمة البنية والدسم من كثرة القفز للمجاري الأعلى، على أن يكون سمكة برنزينو خفيفة تذوب في الفم!

أكتوبر2015 ، مونتريال.

الحملة الانتخابية للسيد هامبتون

في معرض الدعاية السياسية، يمكن توجيه أي تهمة للسيد كارنهان، إلا تهمة الكسل السياسي، فحاكم ولاية ميسوري أفنى عمره، بالمعنى الحرفي للكلمة، من أجل حملته الانتخابية. يمكن القول إن ماكينته الدعائية قادت أكثر الحملات الترشحية انضباطًا وخلوًا من الأعطاب، ما عدا العطب الذي أصاب أحد محركي طائرته السيسنا في طريقها إلى سانت لويس، لخوض مناظرة سياسية ضد خصمه آشكروفت. وهكذا، وفي السادس عشر من أكتوبر لعام ألفين، وبيوم واحد قبل المناظرة المرتقبة، مات السيد كارنهان.

فاز كارنهان بعد ثلاثة أسابيع من موته، بمقعد ولاية ميسوري في مجلس الشيوخ!

السؤال الساخر الذي تداوله الجميع: أي قاع من الانحطاط السياسي ينبغي أن تصله؛ كي تخسر أمام رجل ميت؟! وأي حالة من البلادة تصل إليها الآلة البيروقراطية، لتُبقي على اسم مرشح انتخابي ميت على لائحة الانتخابات؟ إلّا أن السؤال الأهم الذي لم يطرحه أحد بصدق: لماذا لم يجد ناخبو ميسوري أحدًا لتمثيلهم سوى رجل ميت؟ ربما لو طُرح هذا السؤال حينها، لوصل الناس إلى إجابات تجنبهم اشتعال فيرقسون[1] أربعة عشر عامًا بعد ذاك التاريخ.

***

1- فيرقسون: مدينة أمريكية في ولاية ميسوري ذات غالبية سوداء. في عام 2014 وبعد مقتل المراهق الأسود مايكل براون على يد شرطي أبيض، بسبب شجار نشأ بينهما نتيجة قطعه الشارع بطريقة خطأ، شبت احتجاجات وأعمال شغب ضد عنف الشرطة والتمييز المزمن للسود في المدينة.

هل رأيت كلبًا ينهش وجه امرأة؟ هل طرأ في بالك يومًا أن حوافر الخيول ستدوس أجساد الأطفال في مدينتك؟ هل سمعت أزيز رصاصة ينكتم في صدر رجل أعزل؟

(فريد هامبتون) رأى ذلك، وعلى أيدي شرطة مدينته.

مرّ على الحرب الأهلية التي أدت إلى انعتاق العبيد قرنًا، وعلى انتهاء قوانين جيم كرو للفرز العنصري عقدًا، وعلى وثيقة الحقوق المدنية المناهضة للتمييز خمس سنوات، واغتيل مالكولم إكس بعد عام من خطابه (الانتخاب أو الرصاص)، ولا يزال فريد هامبتون -مثل غيره من السود- يشعر بإلحاح قضيتهم، مثل فتيل يشتعل نحو صندوق بارود!

الأمر ببساطةِ قواعدِ لعبةٍ في ساحة المدرسة في أثناء الاستراحة، وينبغي تذكيرهم بقواعد اللعبة بأي وسيلة ممكنة، وإلّا فسدت اللعبة وانفرطت المدرسة. الكل سواسية على الورق، ولهم الحقوق ذاتها، كل ما ينبغي فعله لتذكيرهم بذلك، هو استخدام وسيلة فعالة لتنشيط الذاكرة، كالمقبض اللامع للمسدس!

كل ما يتطلبه الأمر هو متابعة الشرطة في أثناء قيامهم بمهام في أحياء السود لتوثيق حالات العنف، واستخدام حق حمل السلاح المكفول في الدستور في أثناء متابعتهم، بالطبع هذا يتطلب شخصًا يعرف القانون مثل دارس حقوق، ويتطلب شجاعة من لم يمتلك شيئًا بعد في الحياة يخسره، وكلتا الخاصيتين توفَّرتا في العشرينيّ فريد هامبتون، وجعلتاه الزعيم المحلي للفهود السود في شيكاغو.

هل تعرف معنى أن تكون مراقبًا ومهددًا طوال الوقت؟ تفقد الصدفة أي معنًى بالنسبة إليك، ولا يعود العابرون مجرد عابرين، تصبح كائنًا طقوسيًا، يقدّس التخطيط ويرتاب من كلّ ما يخرج عن الروتين، ولا يثق إلّا بالوجوه المألوفة. ولذلك كانت ليلة الرابع من ديسمبر عام1969 عادية لفريد هامبتون. قدم السيد هامبتون ورشة تثقيفية سياسية في الكنيسة ذاك المساء، كالعادة. ثمّ عاد هو وأصحابه إلى شقتهم معًا لتجنب أن يستفرد بهم الخصوم، كالعادة. وجدوا أونيل في انتظارهم في الشقة متخلّفًا عن اجتماعهم بحجة تأخره، كالعادة. أونيل، الوجه المألوف للجماعة، كان قد أعد لهم العشاء، على غير العادة. وحينما اتّجه الكل إلى أماكنهم في الشقة للراحة، استأذن أونيل الجماعة للذهاب للاعتناء بأمه، كالعادة.

من السهل التكهن، أن آخر فكرة طرأت على فريد هامبتون، بعد أن أصاب الخدر لسانه وداهمته سِنة من نوم في منتصف مكالمته مع أمه: كم كان ذاك العشاء مريبًا! ولا أكثر ريبة من أن تعجز أربع وتسعون طلقة عن إيقاظك بعد ذاك العشاء المريب بساعة، خصوصًا حينما تبدأ بعضها بنهش جسمك.

وعلى مخدعه الذي أصبح لحده، وفي سن الحادية والعشرين، قُتل السيد هامبتون وبجانبه رفيقته الحامل بابنهما في الشهر الثامن، التي عاشت لتلد ابنه، ولتكذّب الروايات الأخرى لمقتله، وتجعل العبارة القائلة إنّ شجاعته أتت من عدم وجود ما يخسره، كذبة!

***

حسنًا، الأمر بمثابة لعبة المنوبولي، من وجد نفسه أولًا في الأراضي الثمينة يتحكم في حركة وموارد الآخرين. في الظاهر، النرد هو المهم في ارتقاء السلم الرأسمالي. ولمحترفي اللعبة، المكان الذي ترمي منه النرد هو الأهم.

في الظاهر، التصويت هو الذي يحقق لك حقوقك وطموحاتك السياسية، إلّا إذا كنت تنتخب من حي معزول، لا توجد فيه جامعة، ولا يتمكن سكانه من التنقل إلا بوسائل النقل العامة، أُهْمِل فيه الأمن عمدًا، حتى تجد الشرطة مسوّغًا بين الفينة والفينة، لسجن شبابه الذين بقيت فيهم نفحة من روح. ثم تضع مقرًا انتخابيًا وحيدًا في ذاك الحي المكدس في يوم من أيام العمل، لينتظر من يملك من المال ما يكفي للتغيب عن العمل الساعات الطوال في الطابور الانتخابي، فيقال له حينما يصل دوره: هل لديك جواز سفر؟ بطاقة جامعية؟ رخصة قيادة؟ سوابق؟ -وكلّ سؤال فخ تشريعي لمنعهم من التصويت- فيجد أكثرية من تجرؤوا على رمي النرد الانتخابي، أنّهم قد رموا بالفعل خارج لعبة المونبولي.

عام 2012 في كارولينا الجنوبية، سجل 953 ميتًا أسماءهم على قوائم الانتخابات؛ أو كذلك زعم المدعي العام في الولاية التي أعلنت الحرب الأهلية فور انتخاب رئيس مؤيد لإلغاء الرقّ. لذا فإن وجود تلك الشروط الانتخابية، وإيجاد غيرها، ضرورية لمنع الموتى من التصويت! وحبّذا لو تكون تلك الشروط المانعة للغش الانتخابي أكثر صرامة وانتشارًا، خصوصًا في الأحياء الفقيرة الموبوءة بالجريمة، فهي للتحايل أحرى!

كانت كل القوانين العنصرية والمنحازة بحجة منع التحايل

الانتخابي معنية بوأد أصوات الأحياء، لكنها غفلت عن منع الموتى من الترشح، ولعل هذا ما قلب طاولة المونوبولي على لاعبيها، حينما ظهر اسم فريد هامبتون على قائمة المرشحين لعمدة شيكاغو!

***

للموتى القدرة على تحريكنا والحركة بيننا أكثر من الأحياء. فريد هامبتون أكثر إغواءً ومراوغة بعد موته منه في حياته، فبإمكان السيد هامبتون الآن، أن يقيم حملاته السياسية في ولايات أمريكية بالتزامن، دون أن تعيقه حدود الولايات أو يهدده خطر الفناء في كفن من طائرة سيسنا. بإمكانه أن يقول ما أراد على لسان مريديه، دون الحاجة إلى أن يتلفّت للنظر إلى من يتبعه، وما عادت هناك قيمة لاستدراجه بعشاء مريب من وجه مألوف. وإذا كان إفناؤه في أثناء نومه يتطلب أربعًا وتسعين طلقة، فكم طلقة يحتاج الآن؟

للناس قدرة عجيبة على اجتراح الأسئلة الخطأ حينما تكون الإجابات البديهية مزعجة: من أين للسيد هامبتون بتمويل الحملات التي تظهر كالكمأ في ولايات عدة على الرّغم من أنه مرشح لعمدة شيكاغو فقط؟ كيف يمكن أن تدير دعاية سياسية ضد الموتى دون أن تفقد احترام الموت؟ ما حاجتنا إلى زعيم أسود ميت إذا دخلنا حقبة ما بعد العنصرية بانتخاب رئيس أسود؟ لماذا ظهر اسم السيد هامبتون على قائمة الديمقراطيين بدلًا من الجمهوريين؟ المذيعات التليفزيونيات الهزيلات من الريجيم، والتائهات بسماعات الأذن، كدمًى خشبية تُحرَّك على مسرح،

يسألن مثل تلك الأسئلة التافهة على الهواء مباشرة، أمام حشود في أحياء الغيتو الغاضبة في شيكاغو. لماذا لم ترشح المدينة مسالمًا كمارتن لوثر كنغ؟ أو على الأقل شخصًا أقل راديكالية وأكثر ألفة للتيار الأمريكي الواسع مثل مالكولم إكس؟ وحينما أتت الإجابة من بين الحشد: «لأنّ القانون لا يسمح بترشح ذوي السوابق» لم تستطع الهزيلة التائهة معرفة من أين أتى الصوت، أو شق طريقها تجاه من نحت ثغرًا في السد البيروقراطي، انكسر بعده كل ما كان يصد النهر عن الوصول إلى مجاريه الطبيعية.

***

يمكن القول إنّ الموتى قد سجلوا أصواتهم قبلًا حتى يأتي دور الأحياء، وإنّ المخيلة السياسية التي انتخبت صلاح الدين الأيوبي محافظًا لحلب عام2025 ، لن تعجز عن تخيل خطوتها التالية باتجاه دمشق.

مارس 2016، مونتريال.

ألغورثمية لملاحقة عازف هارمونيكا سيئ

لكلّ كائن حي نمط. كل ما علينا فعله هو مراقبته بما يكفي لكي تتكشف لنا عاداته. نعرف الآن الكثير عن هجرة النوارس وما يغير مسارها، مواسم التزاوج لدى الدلافين وما يؤثر فيها، وطبائع وحيد القرن وما يصيبها بالاضطراب. نعرف ما يكفي لنعرف أنّ لكل كائن حي نمطًا متكررًا، واستجابات محدودة للمتغيرات، حتى الإنسان!

أهم شيء، أن يكون غافلًا عن المراقبة ليركن إلى عاداته واستجاباته العفوية. مبدأ الارتياب لهاينزبرغ أكثر صلة بعالمنا من عالم ميكانيكا الكم، فالراصد له أثر في حركة المرصود، وحينها لا يمكننا التيقن بمكانه، ويكون واردًا دون ارتياب، أن يكون في مكانين في آن!

بدأ الأمر في الثمانينيات، فبدلًا من وضع مراقبين عند مرافئ النوارس ومشاربها لدراستها، مثيرين خوفها من البشر ومؤثرين على خياراتها في الاستقرار والارتحال، يمكن إغواؤها مرة واحدة بما يكفي لوضع طوق إلكتروني حول ساقها، ثم متابعة حركتها بالأقمار الاصطناعية. وهكذا طبِّقت تلك المشاريع في الدلافين بزراعة شرائح في زعانفها، وفي وحيدي القرن بحفر شرائح في قرونها الوحيدة. إيجاد الطُعم المناسب لكل كائن حي لتحضير الفخ هي الخطوة الأصعب، أما ما يليه فمجرد لوغاريثمات حاسوبية بسيطة لتفكيك النمط وقراءته، يمكن تطبيقها على أي حيوان. أما الطُعم الأنسب للبشر فهو إيهامهم أنهم يمتلكون

الخيار. لاحظوا أنواع الهواتف المحمولة الموجودة؟ كم لونًا من كل نوع؟ لاحظوا التحزّبات حول أيّها أفضل: بلاك بيري أو أبل؟ والسباقات المحمومة على الطرازات الجديدة. كان من المهم صناعة هذا الفخ الاستهلاكي وكل هذه الخيارات المثيرة للدوران والجزع والنهم، لإخفاء الخيار الحقيقي: هل تمتلك محمولًا أو لا تمتلكه؟ أو بالأحرى طوقًا إلكترونيًا في يدك يمكن ملاحقته بالأقمار الاصطناعية؟ قليل من ينتبهون لحريتهم في ذلك الخيار، وأقل منهم من يرفضونه، كعازف الهارمونيكا!

الحقيقة أن الأطواق الإلكترونية التي نحملها أكثر من ذلك، لا يمكنك تحصيل راتبك من ماكينة صراف دون أن يسجل ذلك حاسوب، لا يمكنك شراء عطرٍ ببطاقة ائتمان دون أن تتلقفك شبكة إلكترونية، ولا يمكنك أن تفتح بريدك الإلكتروني من أي مكان دون أن تصبح متغيّرًا رياضيًا في ألغوريثمية معقدة.

نعم، قد يبدو أنّنا فعلنا ذلك من أجل الخير العام، من أجل فهم أفضل لهجرة الطيور، من أجل الحفاظ على الدلافين النادرة، ومن أجل محاربة تجارة قرون وحيد القرن، لكن الهدف الأهم لفهم العادات هو محاولة التنبؤ بالخطوة التالية للكائن، أي برمجة ألغورثمية للتكهن بأفعاله. أقصد أن محاولة صناعة ألغورثمية لعازف هارمونيكا في ساحة العذراء في ميونيخ، ليس هدفه متابعة وترقب آخر معزوفاته السيئة -فهي تقتحم شرفتي في الأوقات التي لا أتوقعها- بل التنبؤ ومنع ما حصل في ذات الساحة قبل قرن تمامًا، حينما بدأ هتلر انقلابه منها، وانقلب الخارجون من حاناتها والعابرون فيها في لحظة مباغتة -وقد

تبدو عفوية- إلى جيش منظم. لا بدّ من منع مثل ذلك بأي ثمن، حتى لو تطلب ابتداع ألغوريثمات خاصة لكل إنسان على وجه هذه الأرض.

قد تعتقدون أن خيارات البشر أعقد من خيارات الحيوان، لكننا بمجرد اختزال الإنسان إلى غرائز حيوانية وعادات بيولوجية يمكننا دراسته باللوغاريثمات نفسها. كل إنسان في حاجة إلى أكل ونوم وجنس، لذا فهو في حاجة إلى مهنة ما يكتسب منها رزقه ويحصّل من ورائها طعامه، وفي حاجة إلى ملجأ ينام فيه في أوقات معينة. معرفة ذلك فقط، تكفي لأن ترسم خريطة يومية وجدولًا زمنيًا بتحركاته. أمّا إن كنتم تعتقدون أنّنا لا نستطيع أن نعرف ما يجري في غرف نوم الناس، فيمكنني معرفة كم مرة يمارس رجل ما الجنس، من عدد الواقيات التي يشتريها في الشهر، بل كم مرة يستمني مراهق من خلال تتبع نمط تصفّحه للإنترنت، ويمكنني معرفة متى حبلت إحداهن أو متى أيست حينما تتوقف عن شراء الفوط النسائية. ما بعد ذلك ليس أكثر تعقيدًا إذًا، كل ما هنالك، أنك في حاجة إلى تنمية جموع استهلاكية تستدرج تدريجيًا للتنازل عن خصوصياتها، وفور مرور جيل واحد في هذا المناخ، ينسى البشر وقتًا كان فيه الإنسان لا يعرفه بالوجه إلا من التقى به، ولا يعرف عاداته إلا الأعزاء. في حين يعرف الآن متصفح جوجل أفكارك وأحلامك ونزواتك أكثر ممّا ترضى لأبيك أن يعرف. ويعلم فيسبوك عن ذائقتك في الأصحاب والصاحبات أكثر ممّا تتيح لجارك أن يعرف، ولو أن

النسوة يتخيلن أن وراء كل كاميرا مراقبة عينا بشرية تتلصص، لما مررن أمامها أصلًا.

لذلك يزعجني، عازف الهارمونيكا تحت شرفتي، وليس لعزفه السيئ. أقصد أنني من استقصائي الأوّلي لمواعيد عزفه، عجزت عن فهم روتينه ونمطه، ولأن منظره المشرّد يوحي بشخص لم يقع في خيوط الشبكة التكنولوجية، شخص منعتق من تعاقدات التنازل عن الخصوصية التي يوافق الجميع على قبولها دون أن يقرؤوها. إذ يعزف الرجل في أغرب الأوقات والأيام.

يومًا يوقظني مساء الجمعة وقت الزحام، ويومًا في الثانية صباحًا وسط الأسبوع حين يغيب الجميع، وحينًا في وقت المطر الغزير بينما يبحث الجميع عن مخبأ، وحينًا آخر في ليالي مهرجان أكتوبر الصاخب، وعلى الرغم من أن بعض العابرين يلقون أمامه حسناتهم، فإنه لا يأخذها، وكثيرًا ما أتعثر بالعملات التي يترفع عنها على الطريق الحجري أمام شقتي.

حسنًا، سأعترف لكم بشيء قد يضرني الاعتراف به أمام رؤسائي في العمل، ولكنّني أحب أن أظهر لكم مدى إخلاصي وإيماني بهذه المهمة: لقد تغيبت عمدًا مفاجأةً عن العمل لكسر روتيني، عَلِّي أكشف روتين عازف الهارمونيكا بتلك المباغتة، وأخذت إجازة أسبوعًا لمراقبته، لكنني لم أستطع، وباستثناء الهارمونيكا، فهذا الرجل هو أقدرنا على العودة إلى حياة رجل الكهف، فالرجل لا يستخدم أي جهاز إلكتروني ولا يحمل أي بطاقة. ينام متى ما أتاه النعاس في الحدائق، على الأرصفة

وعند رذاذ النوافير، ويأكل كيفما اتفق من بقايا السائحين على طاولات الطعام، ومن شفقات عاملي المطاعم.

اكتشفت أيضًا أنه يتسول الأموال أحيانًا من العابرين ليشتري بها السندوتشات والسجائر، ومرة رأيته يقايض تلك السجائر مع إحدى المشرّدات ليعبثا في لحاف واحد، وعلى الرغم من كل تلك الأفعال المثيرة للريبة وتقلّبه في أماكن لا يتوقف رجال الشرطة عن حراثتها، إلا أن أحدًا لم يستوقفه قط، ويخيل لي أنه يعيش بالتوازي معنا في مكان آخر، لا يراه سواي. وهو حتمًا يعيش في زمن آخر، تمامًا كعدد تخيلي في معادلة رياضية لم تحل، أو ألغوريثمة حاسوبية في انتظار أن تبرمج!

أقدم لكم هذه الأطروحة: إن أي تقنيات للمراقبة والتنبؤ مهما تطورت وتعقدت، ستظل ضعيفة ما لم تتنبه للهوامش في مجتمعاتنا، والعوالم السفلية في ثقافتنا. وإن مصدر قوة أي تقنية مراقبة تطال تلك العوالم، أن تُبقي على وهم الهامشية والسفلية قائمًا. وكتطبيق مبدئي لهذه الأطروحة؛ أتمنى أن تعطوني تفرّغًا مؤقتًا لهذه التجربة، وهي تصميم خطة وبرمجة ألغوريثمية قادرة على تتبع خطوات عازف الهارمونيكا السيئ، مهما بدا اعتباطيًا في عاداته. كعتبة أولية في سبيل الوصول إلى آلية تنبؤ عالية الاحتمالية، ولا تسمح بارتيابٍ من نوعِ أن يكون في مكانين متناقضين في اللحظة الزمنية ذاتها، كأمام شقتي وداخلها مثلًا!

***

الأمر بمثابة محاولة منع الهواء من الوصول إلى صدور الناس، فكل محاولة لوقف هذا الانتشار الفيروسي في الشبكة

العنكبوتية وما أبعد، تبدو بائسة، فالورقة البحثية أعلاه وجدت طريقها على هاشتاغات تويتر، صفحات فيسبوك والإيميلات، وتجاوزت مشاهدات النسخ المقروءة منها على يوتيوب الملايين، حتى الطابعات والفاكسات تلبّستها الأرواح وبدأت تطبع نسخًا مكررة منها، وتطايرت بها الهواتف المحمولة، وخلال ساعات لم يعد هناك إنسان تطاله التّقنية، إلّا وطالته. بالطبع كانت هناك محاولات لمعرفة وتتبع من أشعل كل هذا الحريق، كل الخيوط تنتهي إلى حاسوب واحد، في شقة مطلة على ساحة العذراء في ميونيخ، حيث وُجد ساكنها مقتولًا، ولا أثر للقاتل سوى هارمونيكا مضرجة بالدماء.

يونيو، 2016، مونتريال.

المحتويات

ماتاواشيش أو الهندي الأحمر ما قبل الأخير في كندا	5
القصص الجديرة بعازفة الفلوت الجميلة	9
الغافلون عن جوناثان بميدان بيكادللي	13
لماذا ستسقط بغداد؟	21
إمباير ستايت	25
ما لا يتصوره عابرو مطار ميونيخ	31
حبة قهوة	37
الخيار الصعب لمبرمج حاسوب هوكنق	41
الصورة بعين فوهة دبّابة	47
عن أحلام تراود كاسترو في خريفه	53
رافاييل	61
ومضة في الركن المظلم من دماغ السيدة (أُو)	69
كيف يطهو مايكل السلمون؟	73
الحملة الانتخابية للسيد هامبتون	77
ألغورثمية لملاحقة عازف هارمونيكا سيئ	83

T A R I Q A L - J A R E D

الهندي الأحمر الأخير

توجد في لندن أكثر من ثلاثة آلاف كاميرا مراقبة، لا تعني أي شيء لجوناثان، ما عدا الإحدى عشرة المسلطة على ميدان بيكاديللي. جوناثان معني برصد كل تلك الشاشات، إلا أن الكاميرا الأكثر قربًا إلى قلبه هي كاميرا رقم 3 حينما تحين الساعة الثامنة صباحًا، وهو ما يعني أن ذات الشعر الأحمر ستظهر في الركن الأعلى والأيسر من الشاشة وهي تفتح محل الورود الواقع في أحد الشوارع الحجرية التي تصب في ميدان بيكاديللي. كان بإمكان جوناثان أن يخفي ولهه بذات الشعر الأحمر، لولا أن رتابة العمل تستوجب البحث عن الأنماط والسلوكيات المتكررة والثرثرة حولها، وهو ما جعل صاحبة محل الورود وما تلبسه كل يوم حديث جوناثان وزميله سكوت الصباحي مع كوب النسكافيه.

الغافلون عن جوناثان بميدان بيكاديللي

ISBN 978-9921-768-05-3
9 789921 768053

kalemat
www.kalemat.com
جميع كتبنا متوفرة على تطبيق مكتبة كلمات
Google play
Available on the App Store